كتاب تربيتنا

التربية الإسلامية
أساس التنمية الشاملة

شوال 1424 دجنبر 2003

كتاب تربيتنا

سلسلة تربوية تابعة لمجلة تربيتنا

التي تصدرها الجمعية المغربية لأساتذة التربية الإسلامية

المدير المسؤول: عبد السلام الأحمر

مدير التحرير: أحمد أيت اعزة

هيأة التحرير:

محمد الزباخ

عز الدين الخمسي — محمد احساين

علي الأصبحي — احمد جواهري

محسن الرياحي — إبراهيم خليل أحسن

عنوان المراسلة:

ص .ب 1362 القنيطرة ر - ب 14000

العنوان الإلكتروني:

Tabiatona@hotmail.com

الهاتف:0537363637 ـ الفاكس: 053737681

رقم الإيداع القانوني: 2003/1181

ما ينشر بالسلسلة لا يعبر بالضرورة عن موقف الجمعية

تقديم:

الحمد لله رب العلمين، الحق المبين، والصلاة والسلام على رسوله، سيد الأولين والآخرين.

نقدم لقرائنا الأعزاء الكتاب الثالث من سلسلة كتاب تربيتنا وموضوعه"التربية الإسلامية أساس التنمية الشاملة" والذي يشتمل على القسم الثاني من الندوة التي نظمتها الجمعية المغربية لأساتذة التربية الإسلامية بتعاون من جمعية خريجي الدراسات الإسلامية العليا تحت عنوان:"المادة الإسلامية في التعليم المغربي وقضية التنمية" بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط بتاريخ 18 و 19 محرم 1422 الموافق ل 14 و 15 أبريل 2001.

وكان الباعث على اختيار هذا الموضوع بالذات، وفي هذا الظرف الخاص، ما يثار قديما وحديثا من التشكيك في علاقة الدين عامة بالتنمية، وعلاقة التربية الإسلامية خاصة بها.

وهكذا أصبح طرق هذا الموضوع يفرض نفسه على رأس أوليات البحث والإعلام، على أمل أن يتجاوز ارتباط الإسلام بالتنمية، مجال ندوات أو دراسات محدودة، ليدخل إطار البرامج الدراسية، وخاصة في مادة التربية الإسلامية، التي غدت التحديات الراهنة تلزمها وبإلحاح شديد، أن تسطر ضمن أهدافها الكبرى، تأهيل النشء للإسهام في تنمية البلاد، على مختلف المستويات بفعالية واقتدار.

وإذا شئنا الوقوف عند الأسباب الموضوعية، لتشكل النظرة المجحفة لعلاقة الإسلام بالتنمية، فإن التفكير سيرتد بنا عبر أحقاب التاريخ، إلى بداية عصر النهضة الأوروبية، حيث أقصيت الكنيسة عن التدخل في شؤون الحياة الدنيوية وقضاياها السياسية والاقتصادية وحتى التربوية، وتحققت إثر ذلك نهضة صناعية وعمرانية واجتماعية هائلة، تدعم على أرض الواقع الدعوة إلى العلمانية ـ باعتبارها نهجا للحياة جديدا وفعالا ـ لدى أتباع الديانات السماوية والأرضية على حد سواء.

وزاد من بريق الأطروحات العلمانية في ديار المسلمين، انحسار عطاء الحضارة الإسلامية، وما نتج عن ذلك من تراجعها جحافل الاستعمار، وغزوه العسكري والفكري.

ولما ساد العالم نمط التنمية العلماني، وعجزت الدول الإسلامية عن الانعتاق من قبضة النموذج الغربي في كل مناحي الحياة العامة، طفقت نخبة متغربة بعدما سلمت إليها سلطة القرار، وتصدرت التنظير الفكري، تنسج على منوال المثال العلماني في الحكم والتنمية، دون أن تفلح في مضاهاة درجته، لا في طريقة الحكم الديموقراطي، ولا في مستوى التنمية الليبرالية، ولم تبرح دائرة التخلف المتفاقم، بل وتضاءل أملها في تحقيق إقلاع تنموي، مع استمرارها في التبعية.

وصار هذا الواقع بحد ذاته، يسند محاولات الاعتماد على الذات، في شق طريق مخالف إلى التنمية، يرتكز على رصيد الأمة الديني والحضاري، ويستحضر خصوصيتها وظروفها وتطلعاتها.

ولقد اتجهت مقاربات هذا الموضوع، إلى إبراز متانة العلاقة بين التربية الإسلامية والتنمية في أبعادها المختلفة،

والشاملة لكل مجالات الحياة. وركزت في ذلك على مقاصد الإسلام وطبيعته الوسطية وواقعيته الفريدة، وقدرته الهائلة على تحريك الإنسان من أعماق قلبه، انطلاقا من نظرية الاستخلاف التي تعد بحق أفضل تأطير نظري شرعي لعلاقة الانسان بالتنمية.

فهي ترسي هذه العلاقة على الأسس المكينة لأمانة الاستخلاف، التي تنتظم في نسق واحد كل السلوك الإنساني على الأرض، سواء كان عبادة مفروضة أو معاملة جماعية في ميادين الحياة المتعددة.

ومن هذا المنظور تصير التنمية سلوكا تعبديا، تتوفر لها به كل مقومات الحيوية والفعالية والاتزان والرشد، ويجعلها وسيلة لتجسيد خلافة الإنسان وريادته على الأرض، ولتحقيق كرامته وحريته ومسؤوليته، بعيدا عن منطق الصراع والهيمنة والاستغلال، الذي غدا من السمات الثابتة للتنمية العلمانية.

فالتنمية التي ينشدها الإسلام، والتي تحكمها توجيهاته الربانية وأخلاقه السامية، تستوعب كل تعاون بين الناس يحفظ مصالحهم العامة، وتجرم كل سلوك يرمي إلى إثراء فئة إسعادها على حساب فئة أخرى، حتى ولو كانت هذه الفئة الأخرى دولة كافرة.

لأن المفروض أن تكون كل علاقة تربط بينها وبين دولة إسلامية، قائمة على العدل والرضى، لا على التسلط والظلم والاستغلال.

فالتنمية إذن سلوك إنساني، يتوجه بمنظومة القيم التي يتربى عليها الفرد داخل المجتمع، فيستقيم ويرشد بصلاحها، وينحرف ويختل باختلالها. ومن تم تتأكد علاقة التربية الإسلامية بالتنمية للاعتبارات التالية:

1- توقف عمليات التنمية في أبعادها السلوكية، على مدى تشبع الفاعلين في مجالها الرحب، بقيم الصدق والأمانة والإتقان وغيرها من الأخلاق، التي من شأنها أن تمد المعاملات بالجرعات الكافية من الفاعلية والجاذبية والاستمرارية والازدهار.

فصاحب المال لا يتردد في استثمار ماله كلما اطمأنت نفسه إلى الضمانات التي يمنحها النظام الاقتصادي السائد في البلد، وأيقن بجديته ومرتكزاته الأخلاقية.

كما أن صاحب الجهد والخبرة، ينخرط في العمل وهو واثق بأن كده لن يذهب هدرا أو تهضم حقوقه الثابتة تحت أية ذريعة.

وإذا استبعدت نجاحات التنمية العلمانية ـ كما هي ممارسة اليوم في الواقع ـ أي دور للتربية الدينية وقدمت بدلا عنها تربية اجتماعية علمانية لا تستند إلى عقيدة الإيمان باليوم الآخر الذي هو حجر الزاوية في التربية الإسلامية، فإن لنا أن نسوق بعض الملاحظات، منها أن تعبئة التربية الإسلامية في حياتنا الاقتصادية، سيجعل وثيرة النماء في ارتقاء دائم، تتجاوز إنجازات التنمية العلمانية كما وكيفا، وتصونها عن الشوائب الملازمة لها.

فمن الملامح الأخلاقية التي طبعت التنمية في الغرب اللاديني، تزايد درجات استغلال أصحاب الأموال للعمال، مما أجج الصراعات الطبقية التي سامت أجيالا عديدة ضروبا من التعاسة والشقاء.

وأنه إذا سلمنا بأن الصراع قد خبت ناره بعد إقرار موجة حقوق الإنسان، وإدخال الإصلاحات الضرورية على النظام الرأسمالي، وانهيار النظام الشيوعي البروليتاري، فإنه ما زالت هذه التنمية لا أخلاقية ولا إنسانية، عندما تقوم بالأساس على فعل كل شيء واستباح كل معيب ومستنكر، من أجل توسيع الأسواق الخارجية وتأمين المواد الطاقية والأولية لمصانع الدول الراقية.

أما الإسلام وقيمه الخالدة التي تلقن بالتربية الإسلامية، فتعتبر العدل والنزاهة والصدق أخلاقا مطلوبة، فيما بين المسلمين وفيما بينهم وبين غيرهم من أهل الأديان والملل الأخرى، وأن الغش والظلم والاستغلال ممنوع على كل مسلم مع أخيه المسلم ومع أخيه الإنسان من غير المسلمين على حد سواء.

2- إن الناظر في فقه المعاملات يدرك مدى حرص الإسلام على تطهيرها من زيغ الأهواء، وطغيان المصلحة الفردية على المصلحة الجماعية، أو المصلحة القومية على المصلحة الإنسانية، والتي كانت المسوغ الأول للحروب الاستعمارية وكل المضايقات والحصارات الاقتصادية الموجهة ضد دول العالم الثالث.

ولهذا منع تأسيس معاملات بين أفراد على ما يبدو في أعينهم مصالح ومنافع، دون عرضها على روح الشرع وتوجيهاته، العاصمة لتصرفات الناس من الاحتكام إلى الأهواء الجامحة، الموقعة في ظلم طرف لآخر عن جهل أو عن علم وعجز، أو المفضية إلى إلحاق الضرر والفساد بالحياة الجماعية.

3- ومن الضمانات التي يمنحها الإسلام للتنمية الاقتصادية، أنه ربط الانخراط فيها بما جاوز دائرة الإشباع المادي المحموم، المسوغ للجشع والتسلط والطغيان، وللانحرافات العديدة مثل الغش والربا والاحتكار والغبن والتدليس، إلى جعلها سلوكا تعبديا أنفس عائده ثواب الله ورضاه وأقوى حوافزه ابتغاء النعيم الأبدي في الآخرة.

فكلما قل الربح المادي أو تخلفت ظروفه، أو حل محله الكساد والتراجع أو حتى الإفلاس، لم يكن كل ذلك ليدفع إلى استحلال المحرم أو انتهاك الممنوع من المعاملات، ولا إلى التكاسل في مغالبة الصعوبات المعترضة، ومحاولة تذليلها والثبات في مواجهتها.

4- اعتبار مجال التنمية المادية مجالا للتنمية الإيمانية والأخلاقية، فكل معاملة مالية هي في ذات الوقت معاملة إيمانية وأخلاقية يمارس المسلم من خلالها مراقبة الله وعبادته والتوكل عليه وحمده وشكره ودعائه واستغفاره، حسب ما تقتضيه أحوال العمل الذي يزاوله، وحسب ما يستشعره من حاجات النفس العارضة في مختلف أطواره ومراحله.

كما أن أخلاقا حميدة عديدة تنمي في النفس في رحاب المعاملات التنموية، التي يتوقف إتقانها وكمالها على وجود حد أدنى منها لدى المتعاملين، كأساس للانطلاق فيها وترسيخها وتنميتها مع توالي الممارسة التنموية، التي تتطلب أخلاق الأمانة والتضحية والتعاون مثل الصبر والوفاء والإخلاص والصدق والعفة والقناعة وأمثالها من الأخلاق العملية.

فلا شيء يحتاج إلى قيم الإيمان وأخلاقه، كما تحتاج إليه المعاملات بين الناس، في ميادين التجارة والصناعة والفلاحة والخدمات وتبادل المنافع والمصالح، وذلك ما تستبين به قوة الارتباط بين التنمية والتربية الإسلامية، أمام كل ذي فكر نزيه ونظر منصف.

والله الهادي إلى الحق وأقوم سبيل، وله الحمد أولا وأخيرا.

عبد السلام الأحمر

التربية الإسلامية ومسألة التنمية

ذ. محمد بولوز
(مفتش التعليم الثانوي بآسفي)

مقدمة:

مبررات عديدة تفرض الاهتمام والحديث المستمر عن موضوع التنمية ،ذلك أننا وعبر عقود مضت نعاني تخلفا مريعا في مجالات مختلفة، يتخذ له من الناحية المادية الملموسة مظاهر متنوعة أبرزها انخفاض مستوى الدخل الفردي، والتفاوت الحاد في توزيع الثروات والدخول، وعدم استغلال الموارد بشكل كاف أو بطرق غير سليمة، وكذا التخلف التكنولوجي وضعف الأداء الفني للعمال، وضعف البنية التحتية اللازمة،وضعف الإدارة وتفشي أنواع الفساد والانحراف، وتدني المستوى العلمي والثقافي والصحي عند أفراد المجتمع وتفشي الأمية بمختلف أشكالها بشكل كبير،ونقص في رؤوس الأموال، يضاف إلى ذلك من الناحية النفسية شيوع النظرة الدونية للذات واحتقار النفس أمام حضارة الآخر، وقد نتج عن جميع ذلك وغيره عدم الاستقرار النفسي والاجتماعي والاقتصادي وغياب التوازن في مجالات مختلفة وانتشار البطالة ورسوخ التبعية على أكثر من صعيد وغير ذلك من الآفات الداخلية وأخرى خارجية لها انعكاسات إقليمية ودولية تعود بالسلب على القضايا الحيوية للأمة.فما هي مبررات ربط موضوع التنمية بمسألة التربية عموما وبالتربية الإسلامية على الخصوص؟ وهل ثمة خصوصيات تميز الإسلام في نظرته إلى موضوع التنمية؟ وإذا كان الأمر كذلك فما مفهومه للتنمية، وما طبيعتها، وما أهدافها، وما ضوابطها، وما هي وسائل الحفز عليها؟

مفهوم التنمية

تعرف التنمية في الفكر الاقتصادي والاجتماعي المعاصر على أنها النمو المتواصل في الدخل القومي وهو: مجموع ما ينتجه المجتمع من السلع والخدمات في فترة زمنية معينة، ويؤدي مثل هذا النمو في الدخل القومي عادة إلى نمو موازٍ في معدل الدخل الفردي والذي نحصل عليه بقسمة مجموع الدخل القومي على مجموع عدد الأفراد في المجتمع[1].

ويفترض عادة أن تعطي الدخول المرتفعة فرصا واسعة للأفراد لاستهلاك السلع والخدمات التي ينتجها المجتمع، وتحد الدخول المنخفضة من ذلك مما يعود سلبا على مستوى الرفاه الاجتماعي ونمط الحياة الذي يعيشه الأفراد وأسرهم.

وأما في المنظور الإسلامي[2] فالتنمية ليست عملية اقتصادية بحتة، وإنما هي عملية إنسانية تهدف إلى تنمية الإنسان وتقدمه في مختلف المجالات الممكنة النفسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية والعلمية وغيرها بما يحقق له الكرامة الإنسانية والحياة الطيبة في الدنيا ويحقق أشواقه الروحية في الآخرة بنيل رضوان الله ودخول الجنة والنجاة من النار.فليس هم التنمية في الإسلام هو التكاثر وزيادة كم الإنتاج في السلع والخدمات المادية ولو على حساب القيم والمبادئ والأبعاد الأخرى غير المادية في الإنسان، وإنما السعي إلى التوفيق بين إشباع الحاجات المادية وتلبية أشواقه الروحية ومتطلباته النفسية والاجتماعية بما في ذلك تحقيق عدالة اجتماعية بأوسع معانيها، أي سير عملية النمو المستمر للإنتاج مصحوبة بعدالة التوزيع، فيجتمع قصد الوفرة الاقتصادية والرفاه المادي على مستوى المجتمع مع استحضار الكينونة المتكاملة للإنسان والتلاحم الاجتماعي بين الناس.

ويقابل التنمية بمفهومها المعاصر مفاهيم في التراث الإسلامي من مثل:العمارة، الكسب، العمل، رغد العيش، الإنتاج، الإحياء...فالْعِمَارَةُ فِي اللُّغَةِ مَا يَعْمُرُ بِهِ الْمَكَانُ , يُقَالُ : عَمَّرَ اللَّهُ بِك مَنْزِلَك: وَأَعْمَرَهُ جَعَلَهُ

---

[1] – التنمية من منظور إسلامي (وقائع ندوة عمان يوليوز **1991**) ج**2**.

[2] – نفسه.

آهِلًا عَامِرًا بِك , وَعَمَّرْت الْخَرَابَ أَعْمُرُهُ عِمَارَةً أَحْيَيْته , وَيُطْلَقُ عَلَى الْبِنَاءِ . وَفِي الِاصْطِلَاحِ : الْقِيَامُ بِمَا يُصْلِحُ الْعَقَارَ , أَوْ الْبِنَاءَ مِنْ إحْيَاءِ الْأَرْضِ , وَتَرْمِيمِ الْبِنَاءِ , وَتَجْصِيصِهِ , وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُصْلِحُهُ عُرْفًا[3]. والِاكْتِسَابُ فِي عُرْفِ اللِّسَانِ تَحْصِيلُ الْمَالِ بِمَا حَلَّ مِنْ الْأَسْبَابِ[4].

والعمل كل فعل يصدر عن الإنسان سواء أكان صالحا أم سيئا قصد به الدنيا أم الآخرة، وعيش رغيد: طيب واسع، وأصل الإنتاج نتج، ونتج الشيء من الشيء: خرج منه ونشأ، ونتجت البهيمة وضعت وولدت، وأنتج القوم كان عندهم إبل وشاء حوامل أو نتجت إبلهم وشاؤهم، واستنتج طلب الإنتاج، والْإِحْيَاءُ: عِمَارَةُ الْأَرْضِ الْخَرِبَةِ بِبِنَاءٍ , أَوْ غَرْسٍ , أَوْ سَقْيٍ[5] ويمكن تتبع مفردات التنمية في الفقه الإسلامي من خلال مصطلحات من مثل :المزارعة والمساقاة والمغارسة والبيوع والشركات والاستصناع والمضاربة والإيجار وإحياء الموات وأحكام المعادن والحمى والإقطاع وغيرها من أبواب المعاملات.

علاقة التنمية بالتربية

يرجع الخبراء عوامل التخلف في بلدان العالم الثالث إلى العوامل الجغرافية والطبيعية غير الملائمة،والعوامل السياسية للدول الاستعمارية والإمبريالية التي بنت معظم مدنيتها من خلال ما نهبته من مستعمراتها، وربط اقتصاديات الدول المتخلفة بمصالحها بحيث يكون مكملا لها، وكذا إغراقها بالقروض الربوية،ومنع التكنولوجيا المتقدمة عنها، ثم العوامل النفسية والاجتماعية والثقافية السائدة والاعتقادات الفاسدة التي تعوق التنمية.

ونعتقد أن هذه العوامل الأخيرة هي الأكثر تأثيرا والأخطر شأنا،لأنها تهم الفاعل المباشر في عملية التنمية وتخص العامل الذاتي الذي يمكن التحكم فيه وتوجيهه، ويكاد يكون الأمل في التغيير والإصلاح،بل ويمكن التعويل عليه في تجاوز كثير من العوائق الطبيعية والجغرافية والسياسية كما حدث في التاريخ القديم والمعاصر، ودلت عليه وقائع العديد من الشعوب.ومن حسن الحظ أن هذه العوامل تدخل جميعها في دائرة تأثير المجال التربوي.

ومما يذكر عادة في هذه العوامل، تبني الناس لبعض الخرافات والأساطير في تعاملهم مع الكون والبيئة المحيطة، واعتقاد الجبرية والحتمية والركون إلى الكسل والخمول والسلبية، والدعوة إلى التقشف والزهد المزيف وإهمال الجوانب المادية للحياة، وشيوع التواكل والنظرة الخاطئة لمعنى القضاء والقدر.يضاف إلى ذلك بعض العادات السيئة مثل: تضييع الأوقات وصرفها في غير النافع من الأمور، وشيوع العقلية الاستهلاكية من غير إنتاج،وما يصحب عادة ذلك من إسراف وتبذير وتفاخر بالمظاهر والأشكال، وكذا شيوع بعض الأمراض الاجتماعية مثل:المحسوبية والرشوة والفساد الإداري القضائي وأنواع الغش، والنظرة العصبية الإقليمية والعشائرية الضيقة في تدبير الشأن المالي والاقتصادي وتقديم ذلك على الخبرة والكفاءة، يضاف إلى ذلك فقدان الثقة في الإنتاج المحلي، وفرار الأموال والعقول إلى الخارج، وإغفال الخطط التنموية-إن وجدت- لمظاهر التكامل مما يعرض المشاريع لأخطار التنافس غير المبرر مما يساهم في تبديد الطاقات.

ونظرا لاختلاف عوامل التخلف ذات الخلفية النفسية والاجتماعية والاعتقادية من بيئة إلى أخرى ومن مجتمع إلى آخر،لابد للتربية التي يراد لها أن تعالج الخلل أن تكون منسجمة مع طبيعة المجتمع من حيث مثله ومبادئه وفلسفته الأصيلة وليس بالضرورة مع انحرافاته وشذوذه .فالتنمية الناجحة هي التي تبنى على أسس فكرية سليمة لها جذورها الراسخة في كيان الأمة وأعماقها بحيث تنبثق عنها كل الممارسات الخاصة والعامة،فالتنمية ترتبط بالفلسفة الفكرية التي يتبناها المجتمع.وما لم تعالج الآفات والأمراض الثقافية والاجتماعية فستظل هي نفسها عوامل مقاومة تعوق تنزيل أي مشروع تنموي مهما كان ناجحا في موطنه الأصلي، كما أن حوافز التفاعل مع التنمية ستظل بدورها قاصرة وضعيفة ما لم

---

[3] – الموسوعة الفقهيةج30 ص: 299 وما بعدها إصدار وزارة الأوقاف الكويتية

[4] – الكسب لمحمد بن الحسن الشيباني (ت189) تحقيق سهيل زكار. ط. دمشق دار هبد االهادي حرصوني. (اختصرت مجمل أفكار الكتاب في نقطة حوافز التنمية مع تصرف يسير في بعض العبارات).

[5] – نفسه.

تنبثق من فلسفة المجتمع ومن قناعا ته، فإذا أريد للتنمية النجاح لابد من انسجام تام بين ما يعتقده الناس وما يطبق عليهم من تشريعات وما يؤخذون به من ممارسات وما يستهدفهم من مخططات.

ويبقى عنصر التربية والتعليم هو عصب عملية التنمية على مستوى الوسائل والغايات، وقد أثبتت التربية الإسلامية جدارتها التاريخية في العملية التنموية ليس فقط في أبعادها الروحية والفكرية والمعنوية والأخلاقية وإنما أيضا في بعدها المادي، ويكفي أنها حولت العرب من مجتمع هش فقير متخلف كسول لاه إلى مجتمع غني متقدم منتج جاد قاد العالم لفترة طويلة من الزمن في مختلف مجالات الحياة.

الإنسان أساس التنمية:

تأكيدنا السابق على أهمية العامل التربوي في مجال التنمية وأهمية المكونات العقدية والفكرية والعادات والسلوك ،يبرز محورية الإنسان في العملية التنموية فهو من يقوم ويباشر هذه العملية.فهو المحرك الأساسي للنشاط الاقتصادي والكائن المسؤول عن مستوى الأداء، ومهما كانت طبيعة الموارد المادية من حيث الوفرة والتنوع والجودة، لا يمكن لأي ذي قيمة أن يتحقق، ولا يمكن لأية قوة دافعة أو استراتيجية أي منهج أن تعمل بكفاءة مناسبة في غياب الإنسان.فبالاجتماع الإنساني يتحقق العمران كما يقول ابن خلدون، وبانتقاض الإنسان تنتقض العمارة، ويتحدث عن بعض ما حدث في التاريخ (في منتصف هذه المائة الثامنة من الطاعون الجارف الذي يخيف الأمم وذهب بأهل الجيل وطوى كثيرا من محاسن العمران ومحاها وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها فقلص من ظلالها وفل من حدها وأوهن من سلطانها وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أموالها وانتقض عمران الأرض بانتقاض البشر فخربت الأمصار والمصانع ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل)[6] والإسلام في هذا المجال يعتني بأهمية استمرار النوع البشري وتكثير سواده والمحافظة عليه في ظروف تحفظ عليه إنسانيته حيث يؤكد على الزواج ونظام الأسرة وحفظ الضروريات الخمس وعلى رأسها النفس البشرية، فشرع من الدين ما يكفل بقاءها وحرم الانتحار وأنزل أشد العقوبات على من يعتدي على حرمتها،وجعل رعايته من مسؤولية الأسرة ثم الأقارب ثم عموم المجتمع، وفرغ الأم من عدد من الأعباء الخارجية وأعفاها من وجوب الإنفاق على نفسها أو غيرها إلا أن تضطر إلى ذلك حتى يكون أبلغ في الرعاية والتوجيه والتربية.وأي مخطط تنموي يغيب هذه الأولويات تحدث بينه وبين منهج الإسلام وحشة وغربة وجفاء بمقدار ذلك التغييب والإقصاء.

فالمنهج الإسلامي في التنمية يبدأ بالإنسان ويستمر بالإنسان ويستهدف الإنسان، وبالتربية يستقيم أمره ويصلح حاله ويساهم بدوره في الإصلاح والعمران والتنمية على خير الأوجه وأحسنها.

- طبيعة التنمية في الإسلام وخصائصها:

أ -الربانية: للتنمية في المذهبية الإسلامية ارتباط وثيق بعقيدة التوحيد فالله عز وجل رب العالمين ورب السماوات والأرض خلق الإنسان من قبضة من طين ونفخة من روح واستخلفه في الأرض ليقوم بما يناسب طبيعته الطينية من عمارة هذه الأرض، وبما يناسب طبيعته الروحية من عبادة ربه.وكما أن القيادة في الإنسان منحت لروحه، فالعمارة بدورها تخضع لمنهج العبادة فتكون وفق ما شرع الله من قواعد وأحكام.وأي نكوص في مسار العمارة والتنمية عن هذا المنهج لن ينتج سوى الخراب والفساد ولو مع وفرة الكم وتطور النوع وزخرفة الشكل، تماما كما يحدث للفرد عندما يسلم قياده لنزعاته وشهواته الطينية بعيدا عن ضوابط الشرع.

فبعد أن هيأ الله كل شيء أحسن ما يكون التهييء خلق الإنسان في أحسن تقويم (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِنْ طِينٍ) (السجدة 7) وبعد أن نفخ فيه من روحه أكرمه وأسجد له ملائكته وأعلن فيهم أنه جعله خليفة(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (البقرة 30) ثم حدد مهمته ووظيفته فقال عز وجل (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي(الذاريات 56)

وفي علاقته بالأرض التي أهبط إليها، أمره بعمارتها وحذره من الافتتان بها وذلك بعدم نسيان العبادة والاستغفار وشكر النعم الظاهرة والباطنة (هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنْ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (هود61) وقال تعالى (أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

[6] – مقدمة ابن خلدون ج1 ص: 33–35.

وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً (لقمان 20) وقال أيضا (وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (الأعراف10) وأمره بالسير في الأرض لابتغاء الرزق دون نسيان يوم النشور والبعث وأمر الآخرة (هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ(الملك 15) ومن أثر هذا التذكر اتباع شرع الله وتطبيق أوامره مثل الأمر بالزكاة والتصدق بشيء مما نالته اليد من الرزق (وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ (الحديد 7) وهكذا تمتزج العقيدة والعبادة والعمارة في المنهج الرباني بشكل متكامل لا ينسى العبد ربه وهو يأخذ غمار التنمية ولا ينسى الانتشار في الأرض بعد انقضاء الصلاة (فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(الجمعة10) ويستوي في ميزان الله إذا جند العبد نفسه ليكون رهن إشارة الأمة في ساحة الجهاد أو العلم والتفقه في الدين أو الضرب في الأرض ابتغاء الرزق قال تعالى: (عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ (المزمل 20) وقال أيضا : (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ(التوبة122)

فالتنمية في الإسلام تقوم على التعامل مع الإنسان بكينونته المتكاملة جسما وعقلا وروحا ،فتشبع حاجاته وتلبي أشواق روحه ويفتح المجال لعقله ليبدع وينطلق اجتهادا في فهم نصوص الشريعة وفي إعمار الأرض وتحقيق تقدم الإنسان ونمو حياته المادية والخلقية والعلمية والاجتماعية..

ب-الشمول: من خلال العنصر السابق رأينا المزج القوي بين دنيا الناس وآخرتهم، فالإسلام يجعل الدنيا مزرعة للآخرة ففي الوقت الذي تتقدم التنمية في الأرض وينمو المال الصالح يستفيد العبد الصالح أجرا وحسنات بفعل ما يوفره هذا المال من أفعال الخير والبر والمعروف فينمي رصيده في الآخرة ،فهي تنمية تشمل الدنيا والآخرة، ويعم خيرها الجوانب المادية والروحية.كما أن الفرد وهو في طريقه لتنمية رصيده الأخروي والقيام بواجباته الاجتماعية وفروض العين والكفاية تستفيد الجماعة.

ج-التوازن: فبالإضافة إلى تشجيع الإنتاج المادي،هناك تركيز أيضا على البعد الاجتماعي،حتى لا يكون المال دولة بين الأغنياء فجعلت الزكاة من أركان الدين وحثت النصوص الشرعية على مختلف أوجه الإنفاق الواجبة والمستحبة، وشرعت نظاما في الإرث يعيد توزيع الثروة على رأس كل جيل وجعلت العدالة الاجتماعية مقصدا أساسيا من مقاصد نظامها.

د-المسؤولية المشتركة: التنمية في الإسلام مسؤولية الجميع كل بحسب جهده وطاقته، فمن الأغنياء المال ومن الفقراء الكد والجهد، والدولة توجه الإنتاج وتوفر البنية الأساسية للتنمية وتسن من التشريع والقوانين في إطار الشرع الحنيف ما يناسب ويسهل عملية الإنتاج وتطويره، كما أن من مهامها السهر على القيام بفروض الكفاية جاء في كتاب الكسب للأبي الحسن الشيباني (قَالَ ابْنُ حَمْدَانَ رحمه الله وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِي كُلِّ بَلَدٍ طَبِيبٌ وَكَحَّالٌ وَجَرَائِحِيٌّ وَطَحَّانٌ وَخَبَّازٌ وَلَحَّامٌ وَطَبَّاخٌ وَشَوَّاءٌ وَبَيْطَارٌ وَإِسْكَافٌ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ الصَّنَائِعِ الْمُحْتَاجِ إلَيْهَا غَالِبًا كَتِجَارَةٍ وَقَصَّارَةٍ وَمُكَارَاةٍ وَوَارِقَةٍ).

أهداف التنمية:

للتنمية في الإسلام مقاصد في التنمية تنبع من العقيدة ومبادئ الدين، وعلى رأسها تحقيق مرضاة الله بالسير في التنمية وفق شرعه، وتحقيق الحياة الطيبة في الدنيا تجسيدا لموعود الله للمؤمنين قال تعالى :(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(النحل97) وكذا تحقيق سعادة المؤمن في العاجلة كما جاء في مسند الإمام أحمد :(حَدَّثَنَا رَوْحٌ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي حُمَيْدٍ حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ ثَلَاثَةٌ وَمِنْ شِقْوَةِ ابْنِ آدَمَ ثَلَاثَةٌ مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ وَالْمَسْكَنُ الصَّالِحُ وَالْمَرْكَبُ الصَّالِحُ وَمِنْ شِقْوَةِ ابْنِ آدَمَ الْمَرْأَةُ السُّوءُ وَالْمَسْكَنُ السُّوءُ وَالْمَرْكَبُ السُّوءُ *) وفي رواية من صحيح ابن حبان

عن إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع من السعادة المرأة الصالحة والمسكن الواسع والجار الصالح والمركب الهنيء وأربع من الشقاوة الجار السوء والمرأة السوء والمسكن الضيق والمركب السوء.

ويلحق بذلك كل ما يعتبر من ضروريات الحياة بحسب اختلاف الأماكن والأزمان كالتطبيب والتعليم والدخل المحترم بما يحقق الحياة الكريمة لكل إنسان، والمعول عليه في ذلك بداية جهد الأفراد واجتهاداتهم الخاصة لما جبلوا عليه من حب المال وسد الحاجات، وتتدخل الدولة وهيئات المجتمع وأفراده الفاعلين عند عجز البعض عن تحقيق ذلك، بما يكفل التوزيع العادل للدخول والثروات والعمل على تأمين فرص العمل للقادرين عليه.

وعلى صعيد الأمة تهدف التنمية إلى بناء المجتمع السليم،والقيام بواجب العمارة وتوفير مختلف المرافق الاقتصادية التي تحتاجها الأمة وفق مخطط سليم يستثمر الإمكانات المتاحة ويحقق القوة الاقتصادية الكفيلة بالوقوف في وجه مختلف التحديات، ويمتع الأمة بأقصى ما يمكن من الاستقلال الاقتصادي.

ضوابط التنمية:

التنمية في الإسلام شانها شأن المسلم في الحياة، له مبادئ ينطلق منها وضوابط يلتزمها ومقاصد يصبو إليها، فهي منضبطة بضوابط العقيدة والشريعة والأخلاق وخدمة مقاصد الأمة.المال مال الله وهو مصدر النعم وواهبها، والإنسان مستخلف فيها يسأل عن كيفية تحصيلها وعن كيفية إنفاقها روى الإمام الترمذي عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ) وقَالَ هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

والأمة تتولى ملكية المرافق الضرورية والحيوية التي يتحقق الضرر في تفويتها للأفراد، وقد تفوض من يقوم بها وفق شروط مرضية، وتقوم الدولة على حماية الملكية الفردية وتوجيهها لخير أصحابها وأسرهم ومجتمعهم.وتراعى في التنمية أولويات الأمة في تحقيق استقلالها وقوتها والانخراط في مشروعها الحضاري والمساهمة في تحقيق فروض الكفاية وكذا ربط المصير بالمصير في المقاومة الاقتصادية وجهاد المقاطعة لأي عدو متربص بها مهما كلف ذلك من تضحيات خاصة.ومن ذلك أيضا مساهمة التنمية في إعداد العدة لمواجهة الأخطار الخارجية ومساهمتها في العدالة الاجتماعية لتحقيق التماسك الداخلي.

كما أن التنمية في الإسلام تنضبط بضوابط الحلال والحرام ولا يتعدى بها حدود الله فيحرم فيها الغش والربا والقمار والاحتكار والرشوة والغبن والغرر والكذب والزور...، والمتاجرة أو العمل أو الصناعة فيما حرم الله من كل ما ينافي العقيدة كالصلبان والتماثيل ورموز الديانات الباطلة وما فيه إساءة لرموز الإسلام، أو يعرض النفوس والأبدان والعقول للأخطار كبيع السلاح لمن يستعمله في الإجرام أو بيع الميتة والدم الحرام ولحم الخنزير والخمر والمخدرات...وكذا الاستثمار في كل ما يؤذي الأعراض كالمسابح المختلطة والأفلام الماجنة ومختلف أشكال الفنون المروجة للفاحشة ،والأنشطة المخلة بالحياء والتي تجعل الزنى والمتاجرة بالأجساد وسيلة للكسب.

والتنمية في الإسلام قبل ذلك وبعده، تراعي المحافظة على البيئة فيجتهد المسلم في تقليل الفساد المحتمل في البر والبحر والجو لأنه يعلم أن ذلك مقرون بكسب الإنسان كما قال تعالى: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ(الروم41) ويجتهد في المحافظة على ما فطر الله عليه المخلوقات لأن تغيير الخلق في المقدور عليه من ذلك استجابة لرغبة الشيطان وإفساد في الأرض، قال تعالى حكاية عن عمل إبليس: (وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذْ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا) (النساء 119) ومن ذلك الاستنساخ عوض التوالد الطبيعي وإطعام الحيوانات العاشبة طعام اللاحمة مما نتج عنه ما سمي بجنون البقر.

وللتنمية ضابط آخر هو عدم الإسراف والتبذير لقوله تعالى: (وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا(26)إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا(الإسراء 27) وقد امتنع عمر (ر) عن تقسيم أرض السواد بين الجند رعاية لحقوق الأجيال القادمة من المسلمين الأمر الذي يفهم منه عدم أحقية أي جيل في استنزاف خيرات الأمة وطاقاتها ومواردها بما هو فوق الحاجة أو إغراق ميزانية الدولة في ديون تكبل أعناق الذرية اللاحقة.

حوافز التنمية ودور التربية الإسلامية في ذلك

ـ التنمية والعمارة والكسب من الواجبات الدينية:فهي أمور من مسؤولية الدولة والأفراد ،جاء في الموسوعة الفقهية التي تصدرها وزارة الأوقاف الكويتية ما يلي: وَاجِبَاتُ الدَّوْلَةِ الْعَامَّةِ: 14 - يَتَعَيَّنُ عَلَى الدَّوْلَةِ مُمَثَّلَةً بِمَجْمُوعِ سُلُطَاتِهَا أَنْ تَرْعَى الْمَصَالِحَ الْعَامَّةَ لِلْمُسْلِمِينَ الدَّاخِلِينَ تَحْتَ وِلَايَتِهَا , وَجِمَاعُ هَذِهِ الْمَصَالِحِ يَعُودُ إِلَى: (1) حِفْظِ أُصُولِ الدِّينِ وَإِقَامَةِ الشَّرِيعَةِ . (2) إِقَامَةُ الْحُدُودِ , وَعُقُوبَةُ الْمُسْتَحِقِّ وَتَعْزِيرُهُ . (3) حِفْظُ الْمَالِ الْعَامِّ لِلدَّوْلَةِ ,. (4) إِقَامَةُ الْعَدْلِ وَتَنْفِيذُ الْأَحْكَامِ وَقَطْعُ الْخُصُومَاتِ , (5) رِعَايَةُ أَهْلِ الذِّمَّةِ , (6) تَكْثِيرُ الْعِمَارَةِ. (7) إِقَامَةُ السِّيَاسَةِ الشَّرْعِيَّةِ .

واعتبر الفقهاء ترك العمارة من تضييع المال الذي أمر الله بحفظه ،فقال الشَّافِعِيَّةُ: يَجِبُ عَلَى نَاظِرِ الْوَقْفِ عِمَارَةُ الْمَوْقُوفِ مِنْ رَيْعِ الْوَقْفِ, أَوْ مِنْ جِهَةٍ شَرَطَهَا الْوَاقِفُ, كَمَا يَجِبُ عَلَى الْوَلِيِّ عِمَارَةُ عَقَارِ مُوَلِّيهِ مِنْ مَالِهِ, أَوْ مِنْ غَيْرِهِ مِمَّا هُوَ لَهُ, وَعَلَى النَّاظِرِ فِي الْمُشْتَرَكِ بِطَلَبِ شَرِيكِهِ, سَوَاءٌ الْمَوْقُوفُ وَالْمَمْلُوكُ لِنَحْوِ مَسْجِدٍ, وَعَلَى وَلِيِّ الْمَحْجُورِ عَلَيْهِ عِمَارَةُ أَمْلَاكِهِ, وَعَلَى وَلِيِّ الْأَمْرِ فِي مَالِ غَائِبٍ, أَوْ مَيِّتٍ لَا وَارِثَ لَهُ, وَعَلَيْهِ دُيُونٌ , أَمَّا الْبَالِغُ الرَّشِيدُ فَلَا تَجِبُ عَلَيْهِ عِمَارَةُ أَمْلَاكِهِ مِمَّا لَا رُوحَ لَهُ كَقَنَاةٍ وَدَارٍ, وَأَرْضٍ لَهُ خَرَابٍ ; لِأَنَّ تَنْمِيَةَ الْمَالِ غَيْرُ وَاجِبَةٍ , لَكِنَّهُ يُنْدَبُ عِمَارَتُهَا , وَيُكْرَهُ تَرْكُهَا حَذَرًا مِنْ إضَاعَةِ الْمَالِ بِغَيْرِ الْفِعْلِ .

وكان المسلمون يرون أن العمارة أهم وظائفهم بعد تبشير الناس بدين الهداية،ويعتبرون أمرها مقدم على الاهتمام بالخراج المحصل من أرض الفتوح فقد روي عن علي (ر) أنه كتب إلى واليه في مصر يقول :(وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة، ومن طلب الخراج من غير عمارة أخرب البلاد)

كما اعتبر الفقهاء الكسب فريضة من فرائض الدين يقول الإمام أبو الحسن الشيباني[7] (طَلَبُ الْكَسْبِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ ، فَطَلَبُ الْكَسْبِ بَعْدَ الصَّلَاةِ الْمَكْتُوبَةِ الْفَرِيضَةُ بَعْدَ الْفَرِيضَةِ، قَالَ عليه السلام {طَلَبُ الْحَلَالِ كَمُقَارَعَةِ الْأَبْطَالِ , وَمَنْ مَاتَ دَائِبًا فِي طَلَبِ الْحَلَالِ مَاتَ مَغْفُورًا } وَكَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله عنه يُقَدِّمُ دَرَجَةَ الْكَسْبِ عَلَى دَرَجَةِ الْجِهَادِ فَيَقُولُ لَأَنْ أَمُوتَ بَيْنَ شُعْبَتَيْ رَجُلٍ أَضْرِبُ فِي الْأَرْضِ ابْتَغَى مِنْ فَضْلِ اللَّهِ أَحَبُّ إلَيَّ مِنْ أَنْ أَقْتُلَ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ; لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدَّمَ الَّذِينَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى الْمُجَاهِدِينَ بِقَوْلِهِ { وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ } الْآيَةَ , وَفِي الْحَدِيثِ { أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم صَافَحَ سَعْدَ بْنَ مُعَاذٍ رضي الله عنه , فَإِذَا يَدَاهُ قَدْ اكْتَبَتَا فَسَأَلَهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: أَضْرِبُ بِالْمَرِّ وَالْمِسْحَاةِ لِأُنْفِقَ عَلَى عِيَالِي فَقَبَّلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَدَهُ وَقَالَ كَفَّانِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ تَعَالَى}. وَفِي هَذَا بَيَانٌ أَنَّ الْمَرْءَ بِاكْتِسَابِ مَا لَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ يَنَالُ مِنْ الدَّرَجَاتِ أَعْلَاهَا , وَإِنَّمَا يَنَالُ ذَلِكَ بِإِقَامَةِ الْفَرِيضَةِ , وَلِأَنَّهُ لَا يَتَوَصَّلُ إلَى إقَامَةِ الْفَرْضِ إلَّا بِهِ فَحِينَئِذٍ كَانَ فَرْضًا بِمَنْزِلَةِ الطَّهَارَةِ لِأَدَاءِ الصَّلَاةِ وَبَيَانُهُ مِنْ وُجُوهٍ : أَحَدُهَا , أَنْ يُمَكِّنَهُ مِنْ أَدَاءِ الْفَرَائِضِ بِقُوَّةِ بَدَنِهِ , وَإِنَّمَا يَحْصُلُ لَهُ ذَلِكَ بِالْقُوتِ عَادَةً , (...)وَإِنَّمَا لَا يُتَوَصَّلُ إلَى ذَلِكَ إلَّا بِالْكَسْبِ , كَمَا لَا يُتَوَصَّلُ إلَى أَدَاءِ الصَّلَاةِ إلَّا بِالطَّهَارَةِ , وَلَا بُدَّ لِذَلِكَ مِنْ كُوزٍ يَسْتَقِي بِهِ الْمَاءَ أَوْ دَلْوٍ أَوْ رِشَاءٍ يَنْزَحُ بِهِ الْمَاءَ مِنْ الْبِئْرِ , وَكَذَلِكَ لَا يُتَوَصَّلُ إلَى أَدَاءِ الصَّلَاةِ إلَّا بِسَتْرِ الْعَوْرَةِ , وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِثَوْبٍ , وَلَا يَحْصُلُ لَهُ ذَلِكَ إلَّا بِالِاكْتِسَابِ عَادَةً وَمَا لَا يَتَأَتَّى إقَامَةُ الْفَرْضِ إلَّا بِهِ يَكُونُ فَرْضًا فِي نَفْسِهِ).

ـ الكسب طريق أداء النفقات الواجبة:

قال تعالى { أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ } وَالْأَمْرُ حَقِيقَةٌ لِلْوُجُوبِ , وَلَا يُتَصَوَّرُ الْإِنْفَاقُ مِنْ الْمَكْسُوبِ إلَّا بَعْدَ الْكَسْبِ وَمَا لَا يُتَوَصَّلُ إلَى إقَامَةِ الْفَرْضِ إلَّا بِهِ يَكُونُ فَرْضًا فَاَللَّهُ تَعَالَى أَمَرَ بِالْإِنْفَاقِ عَلَى الْعِيَالِ مِنْ الزَّوْجَاتِ وَالْأَوْلَادِ وَالْمُعْتَدَّاتِ,و يُفْتَرَضُ عَلَيْهِ الْكَسْبُ بِقَدْرِ كِفَايَتِهِمْ غَنِيًّا; لِأَنَّ الْإِنْفَاقَ عَلَى زَوْجَتِهِ مُسْتَحَقٌّ عَلَيْهِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى { أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وُجْدِكُمْ }وَقَالَ جَلَّ وَعَلَا { وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ وَقَالَ صلى الله عليه وسلم {كَفَى بِالْمَرْءِ إثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَمُونُ}وَقَالَ عليه السلام {إنَّ لِنَفْسِك عَلَيْك حَقًّا , وَإِنَّ لِأَهْلِك عَلَيْك حَقًّا فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ }فَإِنْ كَانَ لَهُ أَبَوَانِ كَبِيرَانِ مُعْسِرَانِ , فَإِنَّهُ يُفْتَرَضُ عَلَيْهِ الْكَسْبُ بِقَدْرِ كِفَايَتِهِمَا; لِأَنَّ نَفَقَتَهُمَا مُسْتَحَقَّةٌ عَلَيْهِ بَعْدَ عُسْرَتِهِ إذَا كَانَ مُتَمَكِّنًا مِنْ الْكَسْبِ { قَالَ عليه

[7] – الكسب لأبي الحسن الشيباني. مرجع سابق.

السلام لِلرَّجُلِ الَّذِي أَتَاهُ وَقَالَ أُرِيدُ الْجِهَادَ مَعَك أَلَك أَبَوَانِ قَالَ نَعَمْ قَالَ عليه السلام ارْجِعْ فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ } يَعْنِي اكْتَسِبْ وَأَنْفِقْ عَلَيْهِمَا , وَقَالَ تَعَالَى { وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا } وَلَيْسَ مِنْ الْمُصَاحَبَةِ بِالْمَعْرُوفِ تَرْكُهُمَا يَمُوتَانِ جُوعًا مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى الْكَسْبِ، وَلَا يَتَمَكَّنُ مِنْ الْإِنْفَاقِ عَلَيْهِمْ إلَّا بِتَحْصِيلِ الْمَالِ بِالْكَسْبِ وَمَا يُتَوَصَّلُ بِهِ إلَى أَدَاءِ الْوَاجِبِ يَكُونُ وَاجِبًا . وإن كَانَ عَلَيْهِ دَيْنٌ فَالِاكْتِسَابُ بِقَدْرِ مَا يَقْضِي بِهِ دَيْنَهُ فَرْضٌ عَلَيْهِ.

- الكسب سبيل لأداء أنواع من الطاعات:

بِالْكَسْبِ يَتَمَكَّنُ العبد مِنْ أَدَاءِ أَنْوَاعِ الطَّاعَاتِ مِنْ الْجِهَادِ وَالْحَجِّ وَالصَّدَقَةِ وَبِرِّ الْوَالِدَيْنِ وَصِلَةِ الرَّحِمِ وَالْإِحْسَانِ إلَى الْأَقَارِبِ وَالْأَجَانِبِ .فَيُنْدَبُ إلَى الِاكْتِسَابِ لِلْإِنْفَاقِ والصدقة بشكل عام لما في ذلك من الأجر العظيم روي عن النبي (ص) أنه قَالَ: فِي الْإِنْسَانِ سِتُّونَ وَثَلَاثُمِائَةِ مَفْصِلٍ, عَلَيْهِ أَنْ يَتَصَدَّقَ عَنْ كُلِّ مِفْصَلٍ صَدَقَةً , فَسَأَلُوهُ مَنْ يُطِيقُ ذَلِكَ؟ قَالَ النُّخَاعَةُ تَرَاهَا فِي الْمَسْجِدِ فَتَدْفِنُهَا, أَوْ الشَّيْءَ فَتُنَحِّيهِ عَنْ الطَّرِيقِ, فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَرَكْعَتَا الضُّحَى يَجْزِيَانِكَ).

وعموما فالكسب مِنْ أَسْبَابِ التَّعَاوُنِ عَلَى إقَامَةِ الطَّاعَةِ وَإِلَيْهِ أَشَارَ عَلِيٌّ رضي الله عنه فِي قَوْلِهِ لَا تَسُبُّوا الدُّنْيَا فَنِعْمَ مَطِيَّةُ الْمُؤْمِنِ الدُّنْيَا إلَى الْآخِرَةِ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الكسب سِوَى التَّعَفُّفِ وَالِاسْتِغْنَاءِ عَنْ السُّؤَالِ لَكَانَ مَنْدُوبًا إلَيْهِ.

- الْكَسْبُ طَرِيقُ الْمُرْسَلِينَ صلوات الله عليهم:

وَقَدْ أُمِرْنَا بِالتَّمَسُّكِ بِهُدَاهُمْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {فَبِهُدَاهُمْ اقْتَدِهِ} وَبَيَانُهُ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ اكْتَسَبَ أَبُونَا آدَم عليه السلام قَالَ اللَّهُ تَعَالَى{فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنْ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى} أَيْ تَتْعَبْ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ وَقَالَ مُجَاهِدٌ فِي تَفْسِيرِهِ لَا تَأْكُلْ خُبْزًا بِزَيْتٍ حَتَّى تَعْمَلَ عَمَلًا إلَى الْمَوْتِ وَفِي الْآثَارِ (...) وَكَذَا نُوحٌ عليه السلام كَانَ نَجَّارًا يَأْكُلُ مِنْ كَسْبِهِ وَإِدْرِيسُ عليه السلام كَانَ خَيَّاطًا وَإِبْرَاهِيمُ عليه السلام كَانَ بَزَّازا عَلَى مَا رُوِيَ عَنْ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ {عَلَيْكُمْ بِالْبَزِّ , فَإِنَّ أَبَاكُمْ كَانَ بَزَّازا} يَعْنِي الْخَلِيلَ عليه السلام {وَدَاوُد عليه السلام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ كَسْبِهِ} (...) قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ} وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ {وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ} فَكَانَ يَصْنَعُ الدِّرْعَ وَيَبِيعُ كُلَّ دِرْعٍ بِاثْنَيْ عَشَرَ أَلْفًا فَكَانَ يَأْكُلُ مِنْ ذَلِكَ وَيَتَصَدَّقُ}, وَسُلَيْمَانُ صلوات الله عليه يَصْنَعُ الْمَكَايِيلَ مِنْ الْخُوصِ فَيَأْكُلُ مِنْ ذَلِكَ, وَزَكَرِيَّا عليه السلام كَانَ نَجَّارًا, وَعِيسَى عليه السلام كَانَ يَأْكُلُ مِنْ غَزْلِ أُمِّهِ وَرُبَّمَا كَانَ يَلْتَقِطُ السُّنْبُلَةَ فَيَأْكُلُ مِنْ ذَلِكَ, وَهُوَ نَوْعُ اكْتِسَابٍ. وَنَبِيُّنَا صلى الله عليه وسلم كَانَ يَرْعَى فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ عَلَى مَا رُوِيَ {أَنَّهُ عليه السلام قَالَ لِأَصْحَابِهِ رضي الله عنهم يَوْمًا كُنْت رَاعِيًا لِعُقْبَةَ بْنِ مُعَيْطٍ وَمَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إلَّا وَكَانَ رَاعِيًا}, وَفِي حَدِيثِ {السَّائِبِ بْنِ شَرِيكٍ عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم شَرِيكِي وَكَانَ خَيْرُ شَرِيكٍ لَا يُدَارِي وَلَا يُمَارِي} أَيْ: لَا يُلَاجِي, وَلَا يُخَاصِمُ فَقِيلَ: فَبِمَاذَا كَانَتْ الشَّرِكَةُ بَيْنَكُمَا فَقَالَ: فِي الْأَدْمِ وَازْدَرَعَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِمَكَّةَ عَلَى مَا ذَكَرَ مُحَمَّدٌ رحمه الله فِي كِتَابِ الْمُزَارَعَةِ لِيُعْلِمَ أَنَّ الْكَسْبَ طَرِيقُ الْمُرْسَلِينَ عليهم السلام.

- الْكَسْبُ طَرِيقُ الصحابة رضي الله عنهم:

وَقَدْ مَرَّ عُمَرُ رضي الله عنه بِقَوْمٍ مِنْ الْقُرَّاءِ فَرَآهُمْ جُلُوسًا قَدْ نَكَسُوا رُءُوسَهُمْ فَقَالَ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ فَقَالَ: هُمْ الْمُتَوَكِّلُونَ فَقَالَ: كَلَّا, وَلَكِنَّهُمْ الْمُتَآكِلُونَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ, أَلَا أُنَبِّئُكُمْ مَنْ الْمُتَوَكِّلُونَ؟ فَقِيلَ: نَعَمْ, فَقَالَ: هُوَ الَّذِي يُلْقِي الْحَبَّ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يَتَوَكَّلُ عَلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى عَنْهُ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الْقُرَّاءِ ارْفَعُوا رُءُوسَكُمْ وَاكْتَسِبُوا لِأَنْفُسِكُمْ . (...) وقَدْ رُوِيَ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رضي الله عنه كَانَ بَزَّازًا وَعُمَرُ رضي الله عنه كَانَ يَعْمَلُ فِي الْأَدَمِ وَعُثْمَانُ كَانَ تَاجِرًا يُجْلَبُ إلَيْهِ الطَّعَامُ فَيَبِيعُهُ وَعَلِيٌّ رضي الله عنه كَانَ يَكْسِبُ عَلَى مَا رُوِيَ أَنَّهُ أَجَّرَ نَفْسَهُ غَيْرَ مَرَّةٍ حَتَّى أَجَّرَ نَفْسَهُ مِنْ يَهُودِيٍّ { وَقَالَ لِلْوَازِنِ: زِنْ وَارْجَحْ, فَإِنَّ مَعَاشِرَ الْأَنْبِيَاءِ هَكَذَا نَزِنُ}

-كل أنواع الكسب المشروع مطلوب في الشرع:

يقول أبو الحسن الشيباني (ثُمَّ الْمَكَاسِبُ أَرْبَعَةٌ الْإِجَارَةُ وَالتِّجَارَةُ وَالزِّرَاعَةُ وَالصِّنَاعَةُ وَكُلُّ ذَلِكَ فِي الْإِبَاحَةِ سَوَاءٌ عِنْدَ جُمْهُورِ الْفُقَهَاءِ رحمهم الله قَالَ عليه السلام {أُطْلُبُوا الرِّزْقَ تَحْتَ خَبَايَا الْأَرْضِ } يَعْنِي الزِّرَاعَةَ وَقَالَ عليه السلام {الزَّارِعُ يُتَاجِرُ رَبَّهُ}, وَقَدْ كَانَ لَهُ فَدَكُ وَسَهْمٌ بِخَيْبَرَ فَكَانَ قُوتَهُ فِي آخِرِ الْعُمْرِ مِنْ ذَلِكَ وَعُمَرُ رضي الله عنه كَانَ لَهُ أَرْضٌ بِخَيْبَرَ يُدْعَى ثَمْغٌ, وَقَدْ كَانَ لِابْنِ مَسْعُودٍ وَالْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ

وَأَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنهم مَزَارِعُ بِالسَّوَادِ يَزْرَعُونَهَا وَيُؤَدُّونَ خَرَاجَهَا, وَكَانَ لِابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَيْضًا مَزَارِعُ بِالسَّوَادِ وَغَيْرِهِمَا قَالَ عليه السلام {مَا غَرَسَ مُسْلِمٌ شَجَرَةً فَتَنَاوَلَ مِنْهَا إِنْسَانٌ أَوْ دَابَّةٌ أَوْ طَيْرٌ إِلَّا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةٌ}, وَفِي رِوَايَةٍ {وَمَا أَكَلَتْ الْعَافِيَةُ مِنْهَا فَهِيَ لَهُ صَدَقَةٌ} وَالْعَافِيَةُ هِيَ الطُّيُورُ الطَّالِبَةُ لِأَرْزَاقِهَا الرَّاجِعَةُ إلَى أَوْكَارِهَا

أما التِّجَارَةُ فيقول تعالى: {وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ } الْآيَةَ, وَالْمُرَادُ بِالضَّرْبِ فِي الْأَرْضِ التِّجَارَةُ فَقَدَّمَهُ فِي الذِّكْرِ عَلَى الْجِهَادِ الَّذِي هُوَ سَنَامُ الدِّينِ وَسُنَّةُ الْمُرْسَلِينَ, وَلِهَذَا قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه لَأَنْ أَمُوتَ بَيْنَ شُعْبَتَيْ رَحْلِي أَضْرِبُ فِي الْأَرْضِ أَبْتَغِي مِنْ فَضْلِ اللَّهِ أَحَبُّ إلَيَّ مِنْ أَنْ أُقْتَلَ مُجَاهِدًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالَ عليه السلام {التَّاجِرُ الْأَمِينُ مَعَ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ}

وَرُوِيَ عَنْهُ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ: {إنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُؤْمِنَ الْمُحْتَرِفَ} وَفِي الصَّحِيحِ قَالَ صلى الله عليه وسلم {أَحَلُّ مَا أَكَلَ الرِّجَالُ مِنْ كَسْبِ يَدِهِ} وَفِي الْحَدِيثِ {أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ, دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ أَدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةَ فَقَالَ: لَا تَسْأَلْ أَحَدًا شَيْئًا} وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ {مَنْ بَاتَ كَالًّا مِنْ طَلَبِ الْحَلَالِ بَاتَ مَغْفُورًا لَهُ وَأَصْبَحَ وَاَللَّهُ رَاضٍ عَنْهُ}

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ}وقال سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيِّبِ لَا خَيْرَ فِيمَنْ لَا يَجْمَعُ الْمَال فَيَقْضِي دَيْنَهُ وَيَصِلُ رَحِمَهُ وَيَكُفُّ بِهِ وَجْهَهُ وَقَالَ سُفْيَانُ رحمه الله لَيْسَ مِنْ حُبِّكَ الدُّنْيَا أَنْ تَطْلُبَ فِيهَا مَا يُصْلِحُكَ).

خاتمة: إن المتتبع لموضوع التنمية في الإسلام يدرك بغير عناء، أن هذا الدين بعقيدته وشريعته وأخلاقه وعموم قيمه، من أقوى الدوافع نحو التنمية والعمارة والكسب والعمل الصالح والتقدم بالإنسان نحو الخير.وأي نتيجة معاكسة في بلاد المسلمين لهذه المعاني إنما تقع بسبب الجهل بحقيقة هذا الدين أو بسبب استبعاده عن قيادة حياة الناس في هذا المجال، ومحاولة تحريكهم نحو آفاق التنمية بمفاهيم وفلسفات غريبة وحوافز لا تلامس زر التحكم في قلوب المؤمنين.

والمنصف يقف على حقيقة جلية وواضحة وهي أن التربية الإسلامية بمفهومها العام خير خادم لما نصبو إليه من أهداف تخليق الحياة العامة وتحريك الماء الراكد في واقعنا وإصلاح مختلف جوانب الخلل في سيرنا.فالتربية الإسلامية تربي على حب العلم وترسم للمسلم منهجا قوامه: إن كنت ناقلا فالصحة وإن كنت مدعيا فالدليل، فهي عدوة للخرافات والأساطير والسحر والشعوذة.وتربي على حب العمل الصالح وعلى الإيجابية في الحياة ودفع القدر بالقدر والجرأة على اقتحام المستقبل لأن أجله لا يتأخر ورزقه لا يأخذه غيره فلا يخيفه شيء، فهي عدوة للجبرية والركون إلى الكسل والخمول والسلبية والتواكل.وأما الزهد المطلوب فهو زهد القلب في التعلق بالدنيا وحبها إلى حد عبادتها من دون الله والتضحية بالمبادئ والأخلاق لنيل متاعها،هذا الزهد هو الذي يعطي للتنمية ميزتها وخصوصيتها في الإسلام فلا تنقلب إلى صنم يستعبد الإنسان ويدمره، إنه الزهد الذي يجعل الدنيا مزرعة للآخرة.

وتربي على الإحساس بقيمة الوقت فالمؤمن لا يدري متى يرحل للقاء ربه، وتسويف أعمال الخير دفع لها إلى وقت لا يملكه، فمفروض فيه الاجتهاد والاغتنام ما وسعه ذلك لأن الليل والنهار يعملان فيه وينبغي أن يعمل فيهما، فهو يسابق الزمن ويخشى أن تحول أقدار الغد دون ما هو متاح اليوم فيغتنم حياته قبل موته وفراغه قبل شغله وصحته قبل مرضه وشبابه قبل هرمه وغناه قبل فقره.

ولكل ما سبق وغيره، ينبغي لكل غيور يريد الخير لأمته والتقدم لمجتمعه والتنمية لبلاده والعمران في ديار المسلمين أن يجعل التربية الإسلامية أساسا للانطلاق وسبيلا في السير ومقصدا للركب.كما ينبغي أن يعلم كل من يحاول استبعادها أو التقليل من شأنها وإضعاف أمرها في المسلمين أنه فضلا عن عداوته الصريحة لله ورسوله، فهو عدو لأمته، عدو للتنمية والتقدم،عدو لتخليق الحياة العامة، عدو لتاريخ الوطن وحاضره ومستقبله.

الهوية الحضارية والتنمية

ذ. محمد احساين:
(مفتش التعليم الثانوي بنيابة الخميسات)

طرح الإشكالية:

موضوع التنمية أصبح من المواضيع المستأثرة باهتمام كل الفاعلين في الميادين الاقتصادية والاجتماعية والتربوية والسياسية.. نظرا لما له من علاقة بالإنسان والإنسانية في عصر سيطر فيه المنتوج التكنولوجي على كل مجالات الحياة، وأصبح تأثيره واضحا على المنظومة الفلسفية والقيمية والتربوية والمعرفية للمجتمعات، وفي عصر عاصفة العولمة التي تحاول التعامل مع العالم كبضاعة طليقة من كل قيد، غير عابئة بالحدود والقيم والخصوصيات، متجاهلة ذاتية الأفراد والمجتمعات، غافلة عن هوية الأمم والحضارات مما حتم علينا طرح التساؤلات التالية:

ـ ما هي التنمية المنسجمة وخصوصياتنا الحضارية والمؤدية إلى حضارة عصرية متوازنة تحقق للإنسان سعادة الدارين؟؟.

ـ إلى أي حد يمكن أن تستجيب التنيمة لمطلب الهوية الحضارية وما هي أبعاد هذه الاستجابة؟.

ـ كيف يمكن بناء إنسان التنمية، وما دور التربية الإسلامية في هذا البناء؟

إنها تساؤلات تعبر عن إشكالية تؤسس لمداخلتنا هاته.

وتتبلور في السؤال الإشكالي التالي:

ـ هل بإمكان إنسان التنمية أن يساهم في إنقاذ تنمية الأزمة أو معالجة أزمة التنمية؟ وإلى أي حد يتدخل مطلب الهوية الحضارية في بناء هذا الإنسان؟.

لكن لابد من الإشارة بداية إلى أن إشكالية التنمية لها أبعاد مختلفة ومتنوعة، ومعالجتها لا يقتصر بالذات على ما هو تربوي، بل هي نتاج تكاثف الجهود بين التربوي والاقتصادي والاجتماعي والإداري والسياسي... إنما وقع التركيز هنا على العنصر التربوي إيمانا منا أنه الجانب الفاعل الأساس والمؤثر أكثر في بناء الإنسان الذي هو وسيلة التنمية وغايتها.

وعليه فطبيعة الموضوع فرضت علينا اقتراح التصميم التالي:

1 ـ تحديد أهم المفاهيم: التنمية ـ الحضارة ـ الهوية.

2 ـ ماهية التنمية المطلوبة ومواصفاتها.

3 ـ عصرنا بين تنمية الأزمة وأزمة الهوية.

4 ـ التنمية ومطلب الهوية.

5 ـ إنسان التنمية ودور التربية الإسلامية في بنائه.

6 ـ اقتراحات.

1) ـ تحديد المفاهيم الأساس:

ـ التنمية: لقد تعددت تعاريف مصطلح التنمية بتعدد وجهات النظر والخلفية الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية المتحكمة في هذه الوجهات، ويمكن اعتماد التعريف التالي: "التنمية عملية مجتمعية واعية موجهة نحو إيجاد تحولات في البناء الاقتصادي والاجتماعي تكون قادرة على تنمية طاقة إنتاجية مدعمة ذاتيا، تؤدي إلى تحقيق زيادة منتظمة في دخل الفرد وموجهة نحو تنمية علاقات اجتماعية ـ سياسية.

... وتستهدف توفير الحاجات وضمان حق المشاركة، وتعميق متطلبات الأمن والاستقرار"[8].

فالتنمية هنا عملية هادفة تنطلق من وعي المجتمع بحاجاته وثقافاته وتعتمد في مسيرتها على ذاتية أفراده، فهي عبارة عن "تفاعل الفرد والمجتمع والأمة مع البيئة بما فيها من قيم ومبادئ وسنن وموارد... إنها

[8] – عبد الله عزيز الجلال. تربية اليسر وتخلف التنمية. كتاب الأمة، سلسلة عالم المعرفة، ص: 13 (نقلا عن علي خليفة الكوري، يوليوز 1985 الكويت).

تعني أناسا يملكون المعرفة والوسائل اللازمة للتحكم على نحو أكبر بمقدرات حياتهم وتحديد أولوياتهم وتحسين مهاراتهم وتلبية احتياجاتهم ومتطلباتهم"9.

ـ الهوية: في الفلسفة تعني "ما يجعل الشخص أن يكون هو لا سواه"[10]. وهوية شخص أو مجتمع أو أمة هي مجموع السمات النفسية والاجتماعية والحضارية المميزة لهذا الفرد... ومن هنا فإن لكل حضارة هوية تميزها عن غيرها. فالهوية تحيل على الخصوصية وهي ضرورة لتحرير الأنا من سيطرة الآخر وضرورة للتمييز الحضاري والتحرر من سيطرته المادية والعلمية والثقافية دون إلغاء الاستفادة والتفاعل والتلاقح مع هذا الآخر وبالنسبة للخصوصية الإسلامية فإن الهوية هنا تتجاوز النظرة السكونية الماضوية التي تريد أن تبقى أسيرة الماضي وتجتر ما خلفه السلف إلى هوية تجمع بين الثبات والتحول، ثبات على الأهداف والغايات ومرونة في الوسائل والآليات، ثبات على الأصول والكليات ومرونة في الفروع والجزئيات، ثبات في الأخلاقيات والدينيات ومرونة في الماديات والدنيويات...

والفرد المسلم تفرض عليه هويته القيام بدوره في المجتمع حتى لا يعيش متأخرا عنه أو على هامشه، والولاء لدستوره الرباني الهادي إلى الطريق السوي وللغة العربية التي اختارها الله تعالى لغة القرآن، ثم انفتاحه على العالم.. ذلك أن الهوية الإسلامية ذات بعد ديني ثقافي ـ لغوي. عقائدي قومي ـ عالمي باعتبار أن رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم رسالة عالمية تتجاوز الحدود القومية والحضارية.

ـ الحضارة: في مفهومها العام سلوك ونظام وقيم ومعان وأسس ومبادئ ومنظومات وطبيعة وحياة ..... يزخر بها مجتمع ما وتسيطر على مجريات الأحداث فيه يدعمها ويحافظ على بقائها عمل متصل وفعالية عالية.... يسهم فيها كل إنسان مؤهل بقدر طاقته وتأهيله... فيتطور الفكر ويتفاعل وتبرز المخترعات وتتطور الاكتشافات[11]. إنها تفاعل بين عالم الأشياء وعالم الأشخاص في زمان ومكان. مما يضمن حظوظ إثبات الذات على صعيد أشمل ويؤهلها للانخراط في الحداثة الكونية، وليست مقصورة على مجتمع معين، خاصة وأن حضارة اليوم تستوعب كل المنتجات الإنسانية المادية والفكرية والمعنوية لمجتمع معين كيفما كانت درجة ارتقائه في الزمن التاريخي (ما قبل تاريخي ـ تاريخي ـ حديث ـ معاصر...)، وهذا يؤدي إلى الانتقال من الحديث عن الحضارة بصيغة المفرد إلى الحديث عن الحضارة بصيغة الجمع (لكل شعب حضارته) أي من الحضارة الواحدة إلى الحضارات المتعددة. وطبيعي أن هذا التعدد يقتضي وجود خصوصيات حضارية نابعة من ذاتية المجتمع وهويته وارتباطه بهذه الهوية. وتبقى الحضارة ما بقي الإنسان متمسكا بهويته وخطوطها المتوازنة في روحه وبدنه، في دينه وتدينه، في توجهاته وتطبيقاته، في مقوماته ومدركاته ووسائله وغاياته في ضميره وسلوكه وشعوره وتسخيره للكون[12]. وحضارة الإسلام مرتبطة بمقومات ومنطلقات متجلية في كتاب الله تعالى وسنة رسوله واجتهاد مخلصي الأمة. ويوم يفقد المسلم ذاكرته الحضارية ويتخلى عن ذاته ويقطع صلته بقيمه الفاعلة... تزداد معاناته وتقل مناعته ويغترب عن هويته.

2 ـ ماهية التنمية المطلوبة:

إن ما يحقق للتنمية ماهيتها هو مدى توافرها على المواصفات التي تجعل منها تنمية إيجابية متجدرة منسجمة مع خصوصيات المجتمع المسلم وقيمه ومهتمة بالإنسان في أبعاده المختلفة، ويمكن إجمال أهم هذه المواصفات فيما يلي:

ـ تنمية إيمانية هادفة: حيث التجربة الإيمانية تمنح التنمية وحدتها وتفردها وشخصيتها وتماسكها، وتحميها من التفكك والتبعثر والانهيار... وتعطيها قدرات إبداعية أكثر وأعمق، لأن الإيمان الذي يقوم عليه بنيان الدين يجيء دائما بمثابة "معامل حضاري" يوجه التنمية في مسالكها الصحيحة، ويجعلها تنسجم مع حركة الكون والطبيعة ونواميسها فيزيدها عطاءا وإيجابية وتناسقا، كما يبعث في الإنسان الإحساس الدائم بالمسؤولية ويقظة الضمير ويدفعه إلى سباق زمني لاستغلال الفرصة التي أتيحت له كي

---

[9] – وضع الأطفال في العالم، تقرير عن اليونسيف ص: **31**. سنة **1989**.

[10] – معجم لاروس. المعجم العربي الحديث. خليل الجر، ص: **1263**. مكتبة لاروس. باريس.

[11] – محمود محمد صقر. دراسة في البناء الحضاري. كتاب الأمة: ص: **26**. ط.**1**، رجب **1409**هـ. الكويت.

[12] – نفس المرجع، ص: **122**.

يفجر طاقاته ويعبر عن قدراته عن طريق القيم التي يؤمن بها[13]. فعندما يصف الإسلام المؤمنين بأنهم "يسارعون في الخيرات" و"أنهم لها سابقون" نلمس بوضوح فكرة الزمن ومحاولة استغلاله وحسن استغلاله، فالتنمية القائمة والمنطلقة من أساس إيماني هي تنمية في طريق التقوى، تقوى الله في منطلقاتها ومساراتها، وأهدافها يقول تعالى: (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم والله لا يهدي القوم الظالمين، لايزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم)[14].

ـ تنمية ذاتية جهادية: لأن مسيرة التنيمة في أي مجتمع لا تكون راسخة الأركان عميقة الجذور فائضة المردود ما لم تكن نابعة من ذاتية ذلك المجتمع متطابقة مع تصوراته متمشية مع احتياجاته... كما أن التنمية لا يمكن أن تخدم مجتمعها إلا إذا تمت داخل إطاره المجتمعي المحدد الذي يعكس قيمه وأخلاقياته ومبادئه وعاداته[15]. وما دامت التنمية هي تطور وتطوير وخلق وإبداع فإنها تعتمد أساسا على الذات القادرة على تحقيق هذا النمط من التنمية والتحكم في مسارها. وبالتالي فهي تنمية جهادية تستلزم بذل الجهد واستفراغ الوسع وبذل الطاقة وتحمل المشاق.. خاصة وأن التنمية المنطلقة من الخاصية الإيمانية يكون هدفها رفع راية الحق وجلب الخير ومطاردة الباطل وتقوية المسلم للقيام بمسؤولية الاستخلاف.. ومن هنا يمكن اعتبار التنمية فرضا على كل مسلم مكلف، وهي من فروض الكفاية التي تتعلق بإصلاح النظام المعيشي، فالتنمية قضية تستلزم الإيمان بها والجهاد من أجل تحقيقها.

ـ تنمية مستمرة: تنمية مخططة من أجل احتواء كل الظروف وتجاوز الأزمات، وتهتم بتلبية احتياجات الجيل الحالي دون إتلاف موارد الأرض بطريقة تحول دون تلبية احتياجات أجيال المستقبل[16]. إنها التنمية التي تقوم على برامج من شأنها "تحسين نوعية حياة البشر ضمن قدرة التحمل الراهنة لنظام دعم الحياة فوق كوكب الأرض"[17]. والتنمية المستمرة والمستديمة تؤكد كذلك على تكافؤ التنمية بمعنى أنها تهتم بردم الثغرة الفاصلة بين المناطق الغنية والمناطق الفقيرة باعتبار ذلك سبيلا مهما لكفالة تلبية احتياجات أجيال اليوم وأجيال الغد على السواء.. إنها تنمية لا تتوخى تحقيق قدر من المنافع للفقراء في أوقات الرخاء الاقتصادي وتوقع بهم أشد العقاب في الأزمنة الاقتصادية العصيبة.. إنها تنمية مستمرة باستمرار المجتمع.

ـ تنمية شمولية متكاملة: إنها عملية شمولية متعددة الواجهات والأبعاد، ولا يمكن تحقيقها بالتركيز على عنصر أو أكثر من عناصرها كما لا تقتصر على النمو الاقتصادي والاجتماعي كمقياس لها، بل بالتركيز على عملية التغيير المجتمعية الواعية ذات الأبعاد التربوية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية والإدارية.. فهي تنمية تهم المجتمع ككل، ومن مسؤوليات وواجبات كل أفراده ومؤسساته ومنظماته.. مع ضرورة التناسق بين كل هذه المكونات. والتنمية من منظور الإسلام تتخطى حدود المفاهيم المادية التي تقتصر على التقدم الاقتصادي والاستعلاء العسكري وما يرتبط بهما من زيادة الإنتاج وتنشيط عمليات التصنيع والسيطرة على الأرض.. لتشمل جميع أبعاد النمو الشامل والمتكامل للإنسان أفرادا وجماعات نموا متكاملا لمختلف المواهب والملكات ابتداءا بالقدرة على توجيه الاحتياجات المادية وانتهاءا بتطلعاته الروحية والفكرية والأخلاقية والغيبية التي تعينه على تحقيق ذاته عبدا لذلك الخالق العظيم[18].

ـ تنمية علمية عملية ملتزمة: تنمية تقوم على تطور علمي وتقني تنطلق من اكتساب مجموعة المعارف والخبرات والمهارات اللازمة للتصنيع والإنتاج والصيانة وتطوير مجالات الحياة بغية تطبيق المعرفة العلمية وتوظيفها عمليا في الدفع بعجلة التنمية التي تحتاج إلى تنمية التفكير العلمي لدى الأفراد

---

[13] – عماد الدين خليل. حول إعادة تشكيل العقل المسلم. ص: **116**. ط:**2** رمضان **1403**هـ. الكويت.

[14] – التوبة: **109 . 110**.

[15] – دراسة في البناء الحضاري، مرجع سابق، ص: **53**.

[16] – الأمم المتحدة، مجموعة مواد تعليمية للمدارس الثانوية. ص: **16**.

[17] – نفس المرجع والصفحة.

[18] – زغلول راغب النجار، قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي، كتاب الأمة، ص: **72**. ط.**1 . 1409**، الكويت.

بكيفية تمكنهم من تقبل العلم والتكنولوجيا وإدخالهما في الحياة العملية بصورة واعية والتزام أخلاقي روحي يكون الضابط لعدم استخدام معطيات العلوم والتقنية في أعمال الهدم والتفسخ والانحلال والدمار.

إن التنمية المأمولة تنمية تنصت جيدا لصوت القرآن الكريم وهو يحث المسلم على معرفة الكون ـ المعرفة العلمية بظواهر الكون التي منها تولَّد العلوم، مما يجعل المسلم يعيش عصره ويدخله مقبلا عليه بقلبه وعقله لا رافضا أو نافرا ولا منبهرا مشدوها.. بل مشاركا في بنائه ونشاطه[19].

ـ تنمية منفتحة: تنمية تتطلع إلى غد أفضل وتؤمن بمستقبلية الإسلام غير غافلة عن تجارب الآخرين، مستفيدة من إيجابيات العصر وما حققه من تقدم إيجابي، تنمية تقف من الآخر موقف التلميذ الباحث عن الحقيقة المتطلع إلى معرفة كنه الأشياء لا موقف الزبون المستهلك للأشياء.

3 ـ عصرنا بين تنمية الأزمة وأزمة الهوية:

إننا نعيش عصرا متميزا في تاريخ التقدم البشري، عصر التكنولوجيا الصناعية والإعلامية والحربية... التي تحمل معها كل يوم وليدا جديدا، حتى أصبحت الصفة الأساسية لهذا العصر هي التغير وسرعة التحولات في النظم الاجتماعية والاقتصادية وما لها من تأثيرات على القيم والأخلاق والمبادئ... وأصبح الغرب اليوم عملاقا مندفعا باستمرار بفضل هذا التقدم التكنولوجي والصناعي والإعلامي، وفي غياب عنصر الالتزام الروحي والأخلاقي الموجه لهذا التقدم أصبح الإنسان الذي سعى في هذا التقدم غير متحكم في مساره وما قد يحمله من أزمات كأنه أصبح إنسانا آليا يحقق حضارة الإنسان في غيبة الإنسان، حضارة تتحرك على حساب الآخر. مما جعل عمداء الفكر والفلسفة في القرن 20 يجمعون على بروز مأزق حضاري جاء نتيجة ما أصاب إنسان العصر من حيرة وقلق واكتئاب[20]، إنه تقدم يحمل كثيرا من الإيجابيات في عالم الأشياء والتي لن ينكرها أحد؛ لكنها أصبحت أشياء الإنسان تتقدم على حساب الإنسان ذاته، لأنه أهمل إنسانية الإنسان وتنمية خصائصه وصفاته وتكوين ذوقه العام وتطهير وجدانه والارتقاء بنظرته للحياة.

إن التقدم العلمي والتقني وما رافقه من اضمحلال الوازع الديني وجفاف النبع الروحي وفقدان الفهم الصحيح لرسالة الإنسان في هذه الحياة أضاف إلى الثراء المادي تحللا وتفسخا وانحطاطا وتمييعا مما جعل الكثير من هذه المجتمعات المتقدمة أصبحت تتآكل من الداخل من جراء الاستخدام غير المنضبط بأية قيمة دينية أو أخلاقية. وأدى بالتالي إلى استنزاف الموارد وإهدار الطاقات وتلويث للبيئة واختلال الاتزان المناخي للأرض والإشعاعات المهلكة والأمراض المستعصية (جنون البقر، الحمى القلاعية) والعبث بقضايا الهندسة الجينية وتكديس الأسلحة المدمرة... وطبيعي أن تؤثر هذه السلبيات على المجتمعات المتخلفة والتي بحكم ظروفها السياسية والاجتماعية والاقتصادية لازالت تابعة متابعة المغلوب للغالب. وهنا نجد أنفسنا نعيش موقعا حرجا في السباق المستقبلي. مما جعل واقع المسلم منذ بداية عصر التكنولوجيا يتأرجح بين خيارين.

ـ نماذج فلسفية حية ذات أنظمة معاصرة مسيطرة على الحياة العملية.

ـ نموذج نظري لا يشفع عنده إلا تقديس ورثه وتاريخ درسه ولم يستوعبه.

فكان الازدواج في الشخصية الإسلامية كصورة للتوافق النفسي والاجتماعي للخروج من هذا المأزق، وسارت تلك الازدواجية عبر الأجيال لتؤثر في هويتها حيث قلت فيها جرعة التوحيد ويزاد من جرعة التشريق أو التغريب[21]. مما جعل الأمة الإسلامية اليوم تشكو من ضعف الأساس في وضوح هوية أبنائها وعدم اعتزازهم بانتمائهم لها. ومما عزز هذا الضعف العوامل التالية:

ـ تفشي الأمية بين أمة الإسلام التي كانت عبر التاريخ تحارب الجهل.

ـ غياب الحس الديني وغياب فكر الثواب والعقاب عن أجواء البحث العلمي التجريبي وعن الحياة العملية والنقل الحرفي للعلوم الإنسانية والاجتماعية السائدة في الغرب.

ـ التقليل من شأن اللغة العربية وفي مقدرتها على استيعاب شروط التنمية.

---

[19] – الإسلام والمستقبل، تقرير اللجنة التحضيرية العليا لمؤتمر القمة الإسلامي الخامس. الكويت، **1987**.

[20] – الإسلام والمستقبل . رشدي فكار . تقرير المنظمة، مرجع سابق ص: **275**.

[21] – إبراهيم محمد الخليفي، الإسلام والمستقبل، التقرير السابق، ص: **56**.

ـ هجرة الكفاءات والسواعد والأدمغة وتحويل المخزون العقلي للأمة إلى ميادين الإنتاج في أمم أخرى قد تكون معادية للهوية الإسلامية.
ـ قيام مؤسسات علمية وتقنية في الدول الإسلامية على أنماط مستوردة مما يؤدي إلى غربة هذه المؤسسات في بيئاتها وغرابة خريجيها.
ـ التناقض المعيش بين القيم والاتجاهات الإيجابية المضمنة في المناهج أحيانا وبين الممارسات السائدة في المجتمع.
ـ النظر إلى التربية بمعزل عن القطاعات الأخرى وتقديمها على أنها خدمة استهلاكية.
ـ تشويه الثقافة الأصلية للأمة واختزالها في مظاهر احتفالية بعيدة عن الإسلام.
ـ الضغوط التي تمارسها الحضارة الغربية بإنتاجها المادي ووسائلها الإعلامية على الفرد والمجتمع المسلم والتي تحمل في بعض ثناياها تعارضا صريحا مع أمر الله.
ـ تبني النظم التعليمية المستوردة وابتعاد المناهج التربوية في إطارها ومحتواها عن الواقع الإسلامي، والحرص على المتابعة الشكلية للدول المتقدمة في أساليب التربية والتعليم دون فحصها وغربلتها وعرضها على قائمة القيم الإسلامية.
ـ التعريض المبكر للناشئ لمؤثرات لم تصمم له ولا تناسب هويته العامة التي سيصاغ عليها، بل ستشوه هذه الهوية وتعمل على تدميرها وإزالتها.
ـ عدم بروز حقيقة التربية الإسلامية في سلوكات أبنائنا، لأن كثيرا مما يرد في الكتب المدرسية لا يتصل بحياة التلاميذ المعاصرة وينحصر في أغلب الأحيان في دوائر الماضي دون بذل جهد واع لإظهار الالتحام الذي يجب أن يكون بين عناصر الماضي ومتغيرات الحاضر من أجل بناء المستقبل.

4 ـ التنمية ومطلب الهوية:

بما أن الأفكار والتطورات لا تورث مع الأرض وإنما هي مهمة كل جيل في مجتمع معين، فإن ما ينتج عن هذه الأفكار وبلورتها إلى عمل منتج لا يمكن أن يأتي من خارج هذا المجتمع، ولا يمكن التأسيس لحضارة حقيقية عن طريق تقدم تكنولوجي مجلوب ولا عن طريق تنمية اقتصادية ومادية لا تعي ذاتها أو ارتماء في خط من التقدم لا يدرك ذاته[22]. إن منطلق التنمية قيم واعية وتبين للأهداف، وإيمان أبناء التنمية بالتنمية التي يخلقونها هو الذي يفجر الطاقات الكامنة، لأن التنمية روح تعصف في ضمير الأمة تدفعها إلى العطاء، وليست هياكل ونماذج تنقلها إلى مجتمع أحوج ما يكون إلى أن يؤمن بحضارة يشعر أنه خالقها ومنبتها من خلال كيانه ووجوده دون إهمال تجارب الآخرين[23]. خاصة وأن الواقع الإنساني لا يمكن تفسيره على أساس معادلة واحدة، بل هناك المعادلة البيولوجية التي تسوي بين الإنسان وأخيه الإنسان إلا فيما فضل فيه الله بعض الأفراد عن الآخرين (الموهبة الربانية) والمعادلة الاجتماعية التي تقر باختلاف مجتمع عن آخر ومن عصر لآخر حسب درجة التقدم والنمو، وعليه فلكل مجتمع سمات وخصائص تمنحه هويته وذاتيته والمتمثلة في ثقافته ودينه ولغته ووعيه...
والانتماء إلى الهوية الإسلامية يحيلنا إلى مقوماتها الأساسية: الدين واللغة، فالدين الإسلامي الذي يقوم على كلمة التوحيد "لا إله إلا الله"، والشهادة بها كأصل ثابت في حياتنا الدينية والثقافية يقدم للذات المسلمة منهاجا إلهيا في حياته يجنبه تعدد المعايير من خلال ما يستخلصه الإنسان من أحدية الله كمبدأ يضمره ليكون مرجعه في مسلك حياته، ومن فلسفة الشهادة الاعتراف بوجود الذات الإنسانية الشاهدة والمحددة لهويته والمسؤولة أمام الله والناس، فالدين كأحد مقومات الهوية نظام في المعرفة ونظام في المسؤولية الشخصية يكتسبه الإنسان وهو على وعي تام بقدراته العقلية وباستخدام هذه القدرات استخداما كاملا لتنمية قواه وتنمية مجتمعه[24].
واللغة كظاهرة اجتماعية مرتبطة بالمجتمع وتعكس أنماطه الثقافية وتعمل على تحقيق التماسك بين أفراد المجتمع خاصة في المجتمعات الإسلامية المؤمنة بالقرآن الكريم الذي أنزل بلغة عربية ازدادت معه

---

[22] – عبد الله عبد الدايم، الثورة التكنولوجية في التربية العربية، ص: **96**.
[23] – نفس المرجع والصفحة.
[24] – علي عيسى عثمان، الفكر العربي، مجلة الإنماء العربي، ع: **21**، ص: **281**. يوليوز **1981**.

قوة وبلاغة. ومن هنا فإن الاعتزاز بلغة القرآن والعمل على تفعيلها في الحياة العلمية والعملية من شأنه أن يرشد عملية التنمية وتسريعها.. مع العلم أن تكريس اللغة الأجنبية لا يساهم إلا في تغريب العلم والعلماء واغتراب التنمية. فاللغة العربية تعد ملكا حضاريا وتراثا فكريا لكل شعوب الأمة وهي مما يساهم في الحفاظ على الهوية الثقافية والوحدة الروحية.

والتمسك بالهوية يؤدي إلى تبين الموقع الذي يوجد فيه الإنسان، واعتراف بالذات والآخر يقوم على المعرفة، ذلك أن معرفة الذات ومعرفة الآخر شرطان أساسيان لوعينا بعوالم ضعفنا وقوتنا وأسباب العطالة التي نعانيها وعندها يقع التفكير في العمل والإبداع والعطاء... فالعطاء لا يتم إلا بعد إدراكنا لعوامل العجز والشلل ونبذ العقلية الاستهلاكية[25]. والوعي بفلسفة البدء الحضاري، لأن الأمة التي تؤمن بهذه الفلسفة لا يمكن أن تنطلق من علم الحاجات والترف والتسابق الاستهلاكي الذي لا يساعد على قيام قوة إنتاجية محلية، لأن الترف بطبعه يثبط الهمم عن التعلم والتدرب والتمهن. ويسطر لنا الرسول (ص) هذه الفلسفة عندما يقول للصحابة: "إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد في مكة" لأن التسابق في عالم الأشياء لا يتيح لنا فرصة للتعمق في التقنية الغربية الضاغطة ولم يعطنا فرصة لتعلمها، حيث أصبح الإنسان يستكثر من الأشياء، وتكدست البيوت بثمار التقنية فتكرست ظاهرة الركون والإخلاد المتصل لعالم الحاجات وما عادت النفوس قادرة على السيطرة على رغباتها، لأن كثرة المنتجات المستوردة لا تزيد شبابنا إلا من ساحة وقت الفراغ وتفتح عليه سبل غواية الشيطان وتلحق بالفرد والمجتمع العطالة والكآبة والملل والضياع... إن مطلب الهوية الحضارية يأبى الانصياع لفكر المورِّد والانطلاق من منطقه والذي يريد فرضه على المستورد ومخالفة هذا يعد من باب إقامة المصالحة بين "الناجز" و"العاجز" بين "العالم" و"اللاعالم"... وهذه المصالحة وهم نتصوره في إيديولوجيا "التقدم من فراغ" أو "الإنماء من الخارج" والواقع يؤكد أنه يمكن استيراد بعض المنتجات ضمن عملية تبادل غير متكافئة ومحدودة بحدود مصالح المورد لا المستورد، لكن العقل العلمي لا يمكن استيراده معلبا مقولبا بل يكون ويستنبت في مجتمع وأمة تأخذ بأسباب التنمية والتقنية، إن التنمية بذور تستنبت فتنمو في أمة قد أعدت لها أرضا وتموت في أمة أهملت رعايتها وانسلخت عن هويتها. وما يسمى بنقل التنمية وهم آخر وفرية كبرى صدقتها الشعوب المتخلفة؛ لأن التقنية تستنبت بالمجاهدة وتستوعب بالمثابرة[26].

إن مطلب الهوية االحضارية يجعل الإنسان المسلم يعيش في الداخل الإسلامي بأفكاره ومسالكه ورؤيته في النهوض والإصلاح، الإنسان الذي يعيش عصره غير منقطع عن ماضيه ومتطلع إلى مستقبله، إنه الإنسان الذي يتمثل شخصيته الحضارية ويستوعب إنجاز السلف ويدرك رسالته في هذا الكون. إنه إنسان التنمية الذي تسعى التربية الإسلامية إلى تنشئته وتكوينه.

5 ـ بناء إنسان التنمية ودور التربية الإسلامية في هذا البناء:

وإذا كان الإنسان هو الركيزة الأساس لكل مشروع تنموي والوسيلة الفاعلة في التنمية وهو غايتها ومبتغاها. فلا بد إذن من جهود حقيقية لبناء إنسان التنمية، الإنسان الذي يعيش في الداخل الإسلامي بإحساسه. وعواطفه بلغته وأصالته بآماله وطموحه بهويته وتطلعاته.. الإنسان الذي يسعى دوما إلى التغيير والتطوير الذاتي قبل تغيير ما حوله مصداقا لقوله تعالى: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)[27]. حيث يؤكد الإسلام على قانون "التغيير" الذي يعني إعطاء الفرصة للإرادة البشرية المؤمنة لصياغة مصيرها لتنتصر على التحديات ولاستعادة القدرة الأبدية على التجدد والتطور والبناء والإبداع.. والتغيير هنا ينصب على الذات المسلمة في إطارها الفردي بالدرجة الأولى ثم ينسحب على الجماعة[28].

ولا شك أن بناء هذا الإنسان وتكوينه وتدريبه في مختلف أبعاده إشكالية كبرى مطروحة على كل المؤسسات الاجتماعية وخاصة التربوية منها كالأسرة والمدرسة ووسائل الإعلام والجمعيات والهيئات والمنظمات... وتأتي التربية كأهم عامل في إحداث التغيير المطلوب في الذات وفي المجتمع، ويمكن

---

[25] – محسن الميلي. ظاهرة اليسار الإسلامي، ص: **170**، سلسلة المنتدى، ط. **1**. **1993**. دار النشر الدولي. الرباط.

[26] – دراسة في البناء الحضاري، مرجع سابق، ص: **84**.

[27] – الرعد. **11**.

[28] – حول إعادة تشكيل العقل المسلم. مرجع سابق. ص: **140**.

إجمال دور التربية الإسلامية في بناء إنسان التنمية في النقط التالية، معتبرين أن مفهوم "التربية" يتكامل مبنى ومعنى مع مفهوم "الإسلامية" لأن التربية خارج إطار الإسلام ومقاصده تصبح غريبة عن المجتمع الإسلامي.

ـ تشبع في المتعلم البعد الإيماني الذي يؤطره في حياته اليومية، فيتخلق بأخلاق القرآن ويحس بأنه صاحب رسالة يؤمن بها ويعمل جاهدا من أجل تبليغها.

ـ إعادة صياغة الشخصية المسلمة والارتفاع بها إلى سوية الإنسان المنتج، وتغييب صورة الإنسان المستهلك عن ضميرها ومناخها الثقافي، والتركيز على عنصر التكليف على إنسان الواجبات لا إنسان الحقوق.

ـ توظيف المعرفة الإسلامية من أجل التنمية وتوجيهها، باعتبار أن العلم محاولة بشرية لفهم الكون ورصد حقائقه واستقراء سننه.. وتحسيس المتعلم بأن المعرفة عملية متنامية في محاولة الوصول إلى الحقيقة المطلقة، ومنتهاها قول الحق سبحانه وتعالى: (فاعلم أنه لا إله إلا الله)[29]. ومدى ما يمكن أن يحققه ذلك في المجتمع من تقدم مادي وانضباط سلوكي والتزام أخلاقي وفهم عميق لحقيقة رسالة الإنسان في هذا الوجود.

ـ إبراز الخصوصية التربوية في تنشئة الطفل المسلم والوعي بالأسس السيكولوجية والاجتماعية والاقتصادية... والعلوم الإنسانية والتربوية، لأنه لا يمكن أن ننظر إلى الطفل بمعيار من لايزال يرى أنه من سلالة القردة أو من يقرر أن علم الاجتماع يقوم على التصارع والتطاحن بدل التراحم والتكافل...

ـ ترسخ في إنسان التنمية سلوكا يقوم على إدراك المعنى الاجتماعي والخلقي والفكري والروحي والإنساني للتقدم، والدمج الوثيق بين حركة التقدم التقني وحركة التقدم الاجتماعي والروحي.. إنها تساهم في تنمية القيم الإنسانية العميقة والإيجابية التي تخدم التنمية المستديمة وترسخها وتحافظ عليها.

ـ تأصيل الانتماء وهو أخطر قضية ينبغي التركيز عليها في مجال تربية الطفل المسلم خاصة قبل أن تنضج مداركه وتصبح المرجعية الإحالية أو القيم المرجعية الدينية واضحة وثابتة بما يجب أن يتلقاه من دروس وما يجب أن يشاهده ويسمعه ويقرأه من نماذج من السيرة النبوية والتاريخ الإسلامي..

ـ الرغبة في العلم والتعلم وتقديس العمل التنموي. لأن الإسلام عقيدة وعلم وعمل، حتى يقبل على الممارسة الواعية بكل جوانب نشاطه وانطلاقا من فقه آيات القرآن وهدي النبوة من إدراك علل الأشياء وكيفية التعامل مع الأسباب وسنن التغير وقوانين التغيير انطلاقا من جهاز مفاهيمي يرتكز على المصطلح الإسلامي الذي يختلف عما نسمعه اليوم من "غزو" الفضاء و"قهر" الطبيعة و"محاربة" الجفاف...

ـ تدريب المتعلم على التعامل مع المادة التعليمي انطلاقا من منهجيات محددة وهادفة مع تزويده بأساسيات منهجية تساعده على التعلم الذاتي وفحص ما يقرأه وغربلته وفهمه وحسن التعامل معه وعرضه على معيار الشرع، من خلال وقوفه على اجتهادات السلف في هذا الاتجاه وتعرفه على خصوصيات المنهج الإسلامي الذي يتجاوز المناهج المادية والمثالية.

من كل ما سبق يبدو جليا أن الهوية الحضارية شرط لازم لقيام أية تنمية وتجذرها وسلامتها من الأزمات التي قد تعصف بها، وعليه وفي الإطار التربوي يمكن تقديم الاقتراحات التالية مساهمة في إنجاح كل مشروع تربوي يتوخى تكوين وتأهيل إنسان التنمية:

6 ـ الاقتراحات:

ـ اعتبار المادة الإسلامية روحا تسري في جميع المواد وإقامة مصالحة بين الدين والعلم تحقيقا لمبدأ التوحيد ووحدة المعرفة، وتوظيف العلوم الطبيعية وغيرها في إيمان إنسان التنمية وتسخير العلوم الاجتماعية والإنسانية في تطوير البيئة الملائمة للإنسان، واعتبار أن أي فصل في هذا المجال أو تقسيم تعسفي في المواد والعلوم قد يؤدي إلى انفصام في هوية المتعلم.

ـ مراعاة المبدأ السابق في جميع المناهج الدراسية من حيث تأليف مفرداتها وصوغ محتوياتها وتحديد أهدافها، وصوغ كل هذه المعطيات من منظور إسلامي، وتخليص هذه المناهج من بعض الاتجاهات التغريبية التي تحاول تكريس مادية العلم ونفعيته.

---

[29] – محمد 19.

ـ تضمين المناهج معلومات ومعارف عن العالم الإسلامي، عن ماضيه وحاضره ومستقبله، وما ينتظره من تحديات روحية واجتماعية وعلمية وتقنية... والتركيز على بعض المناذج من الفكر الإسلامي لتدعيم عنصر القدوة في التربية كابن خلدون والقاضي أبو يوسف في الاقتصاد وابن الهيثم والبيروني في الفيزياء والخوارزمي وجابر بن حيان في الرياضيات... بدل التركيز على مارك وآدام سميث ونيوتن وباسكال...

ـ الاهتمام بفترة تأسيس شخصية الطفل المسلم خاصة في مراحلها الأولى، حيث الحاجة تدعو إلى وجود حضن دافئ وقلب حنون والإشباع العضوي والعاطفي... لأنها مراحل تنعكس آثارها على مستقبل الشخصية من حيث ثقته بنفسه وبمن حوله ومدى انتمائه وهويته، واعتزازه بهذا الانتماء هو العامل الأساس في خدمة التنمية، ولاشك أن الأم والأسرة هي المؤسسة المؤهلة أكثر لهذه الرعاية، وبدونها قد يتعرض الناشئ مبكرا لمؤثرات لم تصمم له ولا تناسب هويته.

ـ الاجتهاد في تنشئة الطفل المسلم تنشئة تتجاوز الوصفات المستوردة إلى نموذج التنشئة الذي أرساه الإسلام، وهنا لابد من حضور التصورات العقدية التي يسعى المربي المسلم إلى إرسائها في شخصية الناشئ المسلم مما ينعكس على مستوى توافقه النفسي والاجتماعي والبيئي.

ـ ضرورة ملاءمة المادة التعليمية لمستوى المتعلم ومستوى تنمية قدراته العقلية والإبداعية مبنى ومعنى، مادة وطريقة، فالمادة العلمية كثيرة وغزيرة خاصة في العلوم الإسلامية، لذا فالضرورة تدعو إلى إعطاء المتعلم الأسس والمبادئ والمناهج القائدة إلى تعلم ذاتي أوسع وأعمق.

ـ الاهتمام بما ينمي عقل الناشئ، لأن العقل مناط التكليف، والأمة إنما انحدرت بانحدار أداء العقل وتخلفه عن أداء السابقين، واختفاء نمط العلماء ذوي الدراية في استخدام عقولهم ومفاعلتها بالواقع. ذلك أن العقل المسلم يتوسط العلاقة بين الوحي والواقع، يدرس الواقع ومتطلباته، ويدرس الوحي وتشريعاته، ويسعى إلى صياغة نظرية وطريقة تطبيقية يتلاءم فيها الواقع والوحي.

فالفقه مثلا يربط عملية التفكير المنهجي بالأصول مع ملاحظة التطورات والمستجدات التي كان دائم التفاعل معها. لقد كان الفقه الإسلامي دائما يقدر التغير المجتمعي ويشرع له لذا نجد أغلبه مما تنهض به الطاقات الإنسانية الصانعة للتنمية وأكثر أبواب الفقه وقضاياه تنعكس عليها آثار تلك الطاقات فيما تمارسه من عمل سواء في الزراعة أو التجارة أو الصناعة وما يصاحب ذلك كله من عقود وديون وارتهان واستئجار واستبضاع...

ـ إقامة منظومة تربوية تنطلق من منظومة القيم الإسلامية وتعديل الاتجاهات بما يتناسب ومتطلبات التنمية: تعزيز قيمة العمل ـ دعم الاستقلالية في التفكير ـ نبذ التفكير الخرافي ـ نبذ الاتكالية والنزعة الاستهلاكية تأكيد دور الفرد والجماعة في البناء ـ إطلاق الطاقة الإبداعية ـ تنمية قدرات الملاحظة والتجريب والبحث والتعليل والتركيب والاستقراء... حتى يكون النظام التربوي في مستوى مسؤوليته عن حياة الإنسان وعن نموه في العلم والمعرفة وفي تسخيرها للاستفادة والإفادة من النعم التي أصبغها الله على عباده.. وعن تأصيل الاتجاهات الخلقية والوجدانية والنفسية...

ـ الاهتمام الجدي بإشكالية تعريب المؤسسات والمرافق العمومية والخاصة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والإعلامية.. والإسراع بالتعريب الشامل للتعليم العالي الجامعي الذي لازال يوجه صفعات لأبناء العروبة والإسلام ويشككهم في مقدرتهم وهويتهم وهو يتهم الإنمائية. فاللغة كظاهرة اجتماعية لا يمكن أن تكون محايدة، والدراسة والتعلم عملية مستمرة من المهد إلى اللحد، ولا يمكن أن يتم التفاعل المنشود بين العلوم والمعارف إلا بلغة الواقع التي تساهم في تعاون العاملين والمنظرين في تكييف التكنولوجيا الزراعية والصناعية والإعلامية لتلائم أوضاعنا الاجتماعية والثقافية.

السياسة التعليمية أولا

محمد عزيز السجاعي
(أستاذ التربية الإسلامية بالقنيطرة)

أرى من الضروري أن أتحدث عن الركن الأساسي في التعليم المنهجي، الركن الذي تتجلى من خلاله الأسس العامة التي يقوم عليها التعليم، ألا وهو "السياسة التعليمية" التي أحسن تعريفها الشيخ عبد الرحمان حبنكة الميداني حيث قال: "يقصد بالسياسة التعليمية المواد الدستورية العامة للتعليم، وتبين أهداف العملية التعليمية، وتحدد مقاصده، سواء أكانت هذه المواد مكتوبة معلنة بمقررات ومراسيم أو غير مكتوبة ولا معلنة، إلا أنها ملاحظة ذهنا لدى المشرفين على مؤسسات التعليم والمنشئين لها والموجهين لمسيرتها"[30]... ويستطيع الباحث الخبير اكتشافها ـ إذا لم تكن مكتوبة ولا معلنة ـ "إن الواقع الممارس في سائر أركان التعليم المنهجي، في الخطة الدراسية، والمنهاج، والكتاب، والمدرس، والبيئة التعليمية، وتصرفات الأجهزة الإدارية والتوجيهية وأنواع الأنشطة المرافقة للعملية التعليمية"[31].

لماذا التركيز على هذا الركن بالذات؟

الجواب: لأن عملية التنمية وبالخصوص تنمية الإنسان تصطبغ ـ حتما ـ بالمذهب الفكري السائد وبمنظومة القيم، التي تهيمن على الأفكار والنفوس في هذا البلد أو ذاك...

فالمجتمع الذي تسود فيه النزعة الاشتراكية أو النزعة العلمانية، أو النزعة الديمقراطية، أو النزعة الإسلامية أو غير ذلك... لابد أن يجعل الهدف الأول في سياسته التعليمية هو تربية إنسان يحمل هذه النزعة أو تلك عن إيمان واقتناع...

وعليه لا يمكن القول بحيادية التعليم، إن التعليم "في كل بلدان العالم موجه وفق عقائد ومذاهب و(إيديولوجيات) ومفاهيم واضعي سياسته... أو الموجهين له"[32].

إنني حينما أتحدث عن تنمية الإنسان أقر مسبقا بوجود سياسة دقيقة توجه هذه التنمية بحيث تصوغ هذا الإنسان صياغة إسلامية أو علمانية أو شيوعية أو غير ذلك... كما تحدد تصوره للوجود والحياة والإنسان. وعلى أساس ذلك لا ينبغي استيراد نظريات التعليم كما تستورد السلع والبضائع الجاهزة خصوصا إلى البلاد الإسلامية، لأن ذلك يجعل جيل الشباب في هذه البلاد تماما كما وصفه شاعر الإسلام الدكتور "محمد إقبال" قال: (إن الشباب المثقف فارغ الأكواب، ظمآن الشفتين، مصقول الوجه، مظلم الروح... كليل البصر، ضعيف اليقين، كثير اليأس، لم يشاهد في هذا العالم شيئا، هؤلاء الشبان أشباه الرجال ولا رجال، ينكرون نفوسهم ويؤمنون بغيرهم، يبني الأجانب من ترابهم الإسلامي كنائس وأديارا، شباب ناعم، رخو، رقيق في الشباب كالحرير، يموت الأمل في مهده في صدورهم، ولا يستطيعون أن يفكروا في الحرية، إن المدرسة قد نزعت منهم العاطفة الدينية، وأصبحوا خبر كان. أجهل الناس لنفوسهم وأبعدهم من شخصياتهم، شغفتهم الحضارة الغربية... إن المعلم لا يعرف قيمتهم، فلم يخبرهم بشرفهم، ولم يعرفهم بشخصيتهم... إن الإفرنج قد قتلوه (أي قتلوا الشباب) من غير حرب وضرب، عقول وقحة، وقلوب قاسية، وعيون لا تعف عن المحارم، وقلوب لا تذوب القوارع، كل ما عندهم من علم وفن ودين وسياسة وعقل وقلب يطوف حول الماديات، قلوبهم لا تتلقى الخواطر المتجددة، وأفكارهم لا تساوي شيئا، حياتهم جامدة، واقفة، متعطلة)[33].

---

[30] – غزو في الصميم، للشيخ عبد الرحمان حسن حبنكة الميداني، ص: **13 – 14**.

[31] – نفسه.

[32] – نفسه.

[33] – نحو التربية الإسلامية الحرة في الحكومات والبلاد الإسلامية لأبي الحسن علي الحسني الندوي. ص: **44 – 45**.

ويقول في بيت آخر: (يتراءى لك الشباب المتعلم حي يرزق، ولكنه في الحقيقة ميت استعار حياته من الغرب)[34].

والسبب في ذلك كله عدم الوعي الحقيقي بخطورة استيراد نظم تعليمية وتربوية من الشرق أو الغرب وعدم التفكير بجدية في وضع سياسة تعليمية تتجاوب مع روح الأمة وتهدف إلى حماية أجيالها من الغزو الفكري والأخلاقي، كما تهدف إلى إعداد الإنسان المؤمن الحريص على دينه الصالح في دنياه.

فلابد من سياسة تعليمية تعتمد نظام الإسلام وتتبناه وتسعى إلى صياغة حياة شبابها وفق كتاب الله المجيد والسنة المشرفة (وما يستنبط منهما، وبذلك يتم التخطيط والتنمية في جميع النواحي).

ولقد صدق الداعية الإسلامي "محمد الغزالي" رحمة الله عليه حيث قال: "وأشعر في هذه الأيام بأن الحاجة ماسة إلى إحياء ثقافتنا الذاتية، وتنقية جوها وتوسيع دائرتها، فإن الاستعمار الثقافي الملحاح نجح في إعطاب شخصيتنا المعنوية، وفتنة ألوف مؤلفة عن عقائدنا، وعباداتنا، وأخلاقنا، كما نجح في بلبلة ألسنتنا، وطي شرائعنا، وتحقير شعائرنا، ودفعنا في المجتمع الدولي بلا صبغة حقيقية وهوية متميزة، وهذا هو الانهزام التام..! ! "[35].

وعلاج هذا الانهزام لا يتم إلا عن طريق التربية والتعليم في المدارس والجامعات والمعاهد... ولا يتأتى ذلك إلا إذا اصطبغت السياسة التعليمية بالصبغة التي شرفت بها هذه الأمة (صبغة الله، ومن أحسن من الله صبغة، ونحن له عابدون) {البقرة: 137}.

فمادامت "السياسة التعليمية" هي المهيمنة على جميع أركان التعليم المنهجي فمن الواجب أن تتجه الأنظار إلى بنودها لجعلها إسلامية تمتحي من المفاهيم الإسلامية النابعة من الكتاب والسنة والسيرة والتاريخ وعلى أساس ذلك يمكن أن تتغير العملية التعليمية لتصبح المادة الإسلامية مؤثرة في المعارف موجهة للعلوم بمختلف أنواعها مقومة للنظريات... والأمر يحتاج إلى رجال أكفاء، كما يحتاج إلى وقت، فالزمن جزء من العلاج، والمهم هو أن تكون المنطلقات التي ننطلق منها والأهداف التي نريد أن نصل إليها واضحة.. وباختصار يجب أن نؤسس السياسة التعليمية على الإسلام واللغة كما كان الأمر في القرون الأولى والتي بعدها "من أربعة عشر قرنا والأمة الإسلامية لا تعرف التعليم إلا تعليما يبدأ بالدين واللغة، شيء لم تنفك عنه أمتنا في القرون الأولى وفي القرون الوسطى، حتى جاء العصر الحديث ووجدت بدعة فصل التعليم الديني عن التعليم المدني أي وجد ناس يتعلمون الدين ولا يعرفون شيئا عن الدنيا ووجد ناس يتعلمون الدنيا ولا يعرفون شيئا عن الدين. فلا الذين عرفوا الدين وجهلوا الدنيا انتفعوا بدينهم، ولا الدين عرفوا الدنيا وجهلوا الدين انتفعوا بدنياهم"[36].

وقام ذلك على سياسة التنفير من الدين واللغة العربية، حيث أهملت المعاهد الإسلامية وتجاهلها الناس لما رأوا من التفريق والتمييز بين مدرس المواد الإسلامية واللغة العربية وبين مدرسي العلوم الأخرى ماديا ومعنويا... بينما عدونا الأول في هذه الدنيا لم يخجل أن ينتسب إلى اليهودية ولم يشعر بأي استحياء أو حرج عندما أعاد الحياة إلى اللغة العبرية وأقام سياسته التعليمية على أساس ذلك. ولنتأمل هذا الكلام.

"إن أهم ما يسترعي الأنظار في المدارس الإسرائيلية في فلسطين أن لغة الدراسة في كافة المواد هي العبرية، ما عدا اللغات الإنجليزية والفرنسية والعربية، والعناية شديدة في جميع مراحل التعليم بالدراسة الدينية، وجعل التعليم الديني أساس الصهيونية وتقدمها.

ويفهم من ذلك:

أن جميع المدارس الإسرائيلية أو اتجاهاتها تبعا للأحزاب التي ينتمي إليها آباء التلاميذ ـ رغم اختلاف هذه الأحزاب في مثلها العليا التعليمية والدينية والسياسية ـ تلتقي على هذه الفكرة الأساسية، وتعنى عناية خاصة بالتربية الدينية، ويرى بعضها أن التقاليد الدينية اليهودية هي النبراس الذي ينبغي أن يستهدى

---

[34] – نحو التربية الإسلامية الحرة في الحكومات والبلاد الإسلامية لأبي الحسن علي الحسني الندوي. ص: **44 – 45**.

[35] – مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، ص: **38**.

[36] – عن كتاب محاضرات الشيخ محمد الغزالي، ص: **112**.

به في نظم التعليم، ويحتم بعضها على المعلمين أن يكونوا تقليديين، أي أن يحرصوا على التقاليد اليهودية الأصولية[37].

وجاء في مقال (التعليم العالي في إسرائيل) في مجلة فلسطين مقتبسا من الدراسة التي قدمتها دائرة البحوث والدراسات في الهيئة العربية العليا لفلسطين ما يلي:

(إن سياسة التعليم العالي تهدف إلى تنمية العقيدة اليهودية والولاء لها. بالإضافة إلى الدعاية لإسرائيل وكسب الأصدقاء).

وفي المقال المشار إليه تفاصيل هائلة عن العناية باللغة العبرية وجامعاتها، وميزانيتها، وتمويلها، وما يبذل لها اليهود من عناية فائقة، وأموال طائلة وتنظيمات دقيقة[38].

ولابد في الختام أن أشير إلى أن ما قلته سابقا له أصل في القرآن الكريم حيث قال عز من قائل: (هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ظلال مبين) [الجمعة:2].

تكرر هذا المعنى في القرآن الكريم أربع مرات وهو يحدد طبيعة رسالتنا التي يجب أن ننهض بها.

ثلاثة عناصر يجب أن نقف عندها وقفة تدبر واستهداء:

- العنصر الأول: التلاوة (يتلوا عليهم آياته) التلاوة هنا تعني عرض منهج، وإعطاء صورة شاملة للإسلام، التلاوة رسم للمنطلقات والأهداف وتحديد للسياسة التي ينبغي اتباعها.
- العنصر الثاني: التزكية (ويزكيهم) أي يربيهم، التزكية تعني تنمية الخصائص العليا للنفس الإنسانية بقمع أهوائها.
- العنصر الثالث: التعليم (ويعلمهم...) لا يمكن فصل التعليم عن التربية في الإسلام... ولا ينجح في رسم وصياغة سياسة التربية والتعليم إلا من كان مؤمنا ربانيا، متمسكا بتعاليم الإسلام، حريصا على تطبيقها على الوجه الصحيح... ذكيا مخلصا سويا من الناحية النفسية، قادرا على الاستنباط من مصادر التشريع الإسلامي.

---

[37] – التربية في الشرق العربي للدكتور "رودرك ماثيور" والدكتور "متى عقراوي" الفصل السابع عشر، المدارس الإسرائيلية ومناهجها، ص: **354 . 355**.

[38] – عن غزو في الصميم ص: **20 – 21**. ونحو التربية الإسلامية الحرة، ص: **76 – 77**.

آفاق المادة الإسلامية التنموية
في ظل منظومة معوقة

ذ. عبد المجيد بنمسعود
(مفتش التعليم الثانوي -
أكاديمية - وجدة)

مقدمات بين يدي الموضوع:

لا يجادل أحد في أن هاجس التنمية، يكاد يتصدر - في العصر الحديث - مجمل الهواجس التي تؤرق فكر النخبة والعامة على حد سواء، على اختلاف في الدوافع، وفي أسلوب التعاطي مع هذه المسألة التي تعد مؤشرا بارزا، بل وصارخا على وجود مشكلة ضخمة، وأزمة معقدة خانقة، إنها ما يطلق عليه عند الغالبية العظمى: مشكلة التخلف.

غير أن الذي يقع فيه التباين ويحتدم فيه الخلاف، هو نوعية الرؤية التي تصدر عنها كل طائفة في تحليل هذه الظاهرة والكشف عن جذورها ومكوناتها، بل وحتى في حصر ملامحها وتجلياتها، ومن ثم في تحديد صيغ الفكاك منها وتجاوز مخلفاتها.

وقبل المضي في صياغة ما أنا بصدده من مقدمات، أود أن أؤكد على أمر لم يعد سرا بالنسبة للمهتمين العارفين بمكونات البناء الثقافي والاجتماعي، وما يجري فيه من صراع وتدافع، على مستوى التوجهات الفكرية والاختيارات الثقافية التي يراها كل تيار جديرة بالاعتبار، لكونها في نظره معبرة عن الحقيقة والواقع في ديناميته وتفاعله. يتمثل هذا الأمر في أن التيار الدخيل على المجتمع، الغريب عن تاريخه، المنسلخ عن سيرورته الحضارية، يعبر عن موقف في غاية الاستفزازية، مفاده أن عملية التنمية والنهوض من هوة التخلف لا صلة لها مطلقا بالقيم، وأنها لا تعدو أن تكون عملية ذات صبغة تقنية بحتة ليس إلا.. وهي نظرة ممعنة في السطحية غارقة في التبسيط لقضية هي غاية في العمق والتعقيد. وإنه لمن نكد الأيام، أن يستتب الأمر لهذا التيار - ولو إلى حين - ويمكن لأصحابه، إلى الحد الذي يضطر معه أصحاب التيار الأصيل، إلى بذل جهد جهيد لإقناع هؤلاء بعكس ما يظنون، وإن كان ذلك في حكم المستحيل، بسبب نزعة التعصب المطبقة على عقولهم، وإصرارهم على التمسك النهائي بموقفهم، وعدم التزحزح عنه قيد أنملة.

- إن خطاب التنمية لدى هؤلاء، خطاب لا يخرج عن دائرة الدعائية والاستهلاك، لأنه لا يملك أي رصيد على أرض الواقع، لسبب بسيط تمت الإشارة إليه، وهذا اعتقاد أصحاب ذلك التيار بسلامة المدخل التقني الصرف، إلى عالم التنمية. وهو اعتقاد ظاهر البطلان سرعان ما يتناثر أمام الأدلة القوية والحجج الدامغة التي يقدمها أصحاب التيار الأصيل الذي يؤمن إيمانا راسخا بأن عملية التنمية لا مناص لها - إن أريد لها النجاح - من أن تتخلق في رحم المجتمع بما هو كيان متميز ذو منطق فلسفي خاص، ومنظومة قيمية مستقلة، ووجدان تاريخي متجذر في نفوس وذاكرة أهله، وإنه في حالة انعدام اعتبار هذه الشروط من قبل الآخذين بزمام الأمر، نكون بإزاء عملية عبثية لا طائل من ورائها.
- إن مظاهر النزعة الادعائية والاستهلاكية تتجلى بشكل سافر في كون أصحابها لا يأبهون لما تحمله التنمية التي يدعون إليها، من طابع الاستلاب لأفكار ومذاهب الغرب، ولما تجلبه مشاريعها من تعويق لإمكاناتنا الذاتية وشل لفاعلية الإنسان عندنا، بتحويله إلى مجرد آلة مسخرة مأمورة تتحرك في بيئة مستعارة، وضمن نموذج يضرب بمشاعرها وخصوصيتها الثقافية عرض الحائط، ولا يهم هؤلاء بعد ذلك إلا ما يجنونه من ربح شخصي يضيفونه إلى حسابهم الخاص، أما أن يساهم مسلسل التنمية في التحرير التدريجي للأمة من إسار التبعية، بجعل عملية التنمية انبثاقا أصيلا من ثقافتنا تعبيرا عن طموحاتها، فذلك غير وارد عند أصحاب النزعة الاستهلاكية، لأنهم بطبيعة نظرتهم الضيقة وشخصيتهم المدجنة بعيدون عن ذلك الهم بعدا سحيقا.

 إن االفرق بين خطاب التنمية الأصيل، وخطاب التنمية الهجين هو فرق شبيه بالفرق بين من يريد أن يشيد قصرا على الرمال ومن يريد أن يقيم بنيانه على أركان راسخة لا تنال منه عوادي الزمن.. أو بالفرق بين شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها وبين شجرة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار.

إن الفرق بين الخطابين فرق جذري شامل، بدءا من الجهاز المصطلحي الذي استعمله كل منهما، وما يرتبط به من رؤية تصورية، مرورا بالمجالات المستهدفة بالتنمية، وصولا إلى حجم النطاق أو الدوائر التي يتوجه إليها فعل التنمية، أو تصيبها ثمارها.. إلخ. مما سيتضح بنوع من التفصيل فيما يأتي من الصفحات ـ بإذن الله ـ عند الإجابة عن السؤال الأساسي: أي تنمية نريد؟.

إن على رأس الأخطاء الفادحة التي ترتكب حين الحديث عن "التنمية" سوقَ هذا الحديث مساقا عاما غير مقيد ولا مشروط، وهو ما يقع في الخطاب الإعلامي بشكل سافر غريب، مما يوحي لجماهير الناس، وكأن التنمية جسم هلامي غير محدد القسمات ولا محدد الهوية والانتماء، وهو أمر في غاية العبثية والاستخفاف بالإطار المجتمعي الذي يزعم ممارسة فعل التنمية فيه وعليه، ولا أقول عبره وبواسطته، لأن هذين العبارتين تفرضان إشراك ذالك الإطار، باعتباره وسيلة التنمية وغايتها في آن واحد، إن هذه الحقيقة تفرض علينا على وجه الحتم، عند إثارة مسألة التنمية أن نطرح سؤال حيويا وهاما، ألا وهو: أي تنمية نريد؟.

لقد بلور الدكتور الشاهد البوشيخي هذا السؤال ـ المفتاح في ثلاثة أسئلة تفصيلية مشروعة هي: ماذا ننمي؟ ولماذا ننمي؟ وبماذا ننمي؟[39].

ويمكن إجمال الأجوبة التي قدمها الدكتور الشاهد البوشيخي على تلك الأسئلة في كون الموضوع الأسمى الذي ينبغي أن تنصب عليه جهود التنمية، إنما هو الإنسان في جميع أبعاده، على اعتبار أن "الثروة البشرية هي أعظم ثروة" وأن "الذي يحدد نسل الإنسان ويكثر من الأبقار، ما ترك من الجهل شيئا" على حد تعبيره. والمدخل إلى تنمية هذا الإنسان إنما هو تزكية نفسه عن طريق العبادة وتوسيع مداركه من خلال رفع مستواه العلمي، يقول الله تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون) (البقرة: 21) ويقول الله تعالى (واتقوا الله لعلكم ترحمون. (الحجرات: 10).

يقول الأستاذ الشاهد البوشيخي في شأن العلم كموضوع للتنمية إلى جانب الإنسان: "موضوع التنمية موضوع العلم، إذا حضر حضر ما سواه وإذا غاب غاب ما سواه" على أساس أن يصطبغ هذا العلم، شرعيا كان أم ماديا أم إنسانيا بصبغة الوحي، التي تعطيه الحصانة من الزيغ وتمده بإمكانيات لا حد لها للثراء والعمق والتوسع، على اعتبار أنها هي المهماز الحقيقي للفطرة التي جبل الله سبحانه وتعالى الإنسان عليها. أما الجواب عن السؤال: لماذا ننمي؟ فإنه يتمثل في هدف إسعاد الإنسان وما سوى الإنسان كما عبر الدكتور الشاهد البوشيخي، وإلحاق الرحمة بالجميع. فإذا كان الإنسان المسلم يتأسى برسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن الله سبحانه وتعالى قد خاطبه بقوله تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) (الأنبياء: 107).

أما الإجابة عن السؤال: بماذا ننمي؟ فإنها تجد تجسيدها في كل الوسائل والقنوات والمؤسسات التي تؤطر الفرد والمجتمع، شريطة أن تستقي مادتها من القرآن والسنة، لأنهما يمثلان روح الأمة، الذي من دونه تضمر فتذبل فتموت، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه...".

وإنه مما يحز في النفس، أن خطاب التنمية في نطاق مجتمعاتنا، أو غالبيتها العظمى، يتأرجح بين موقفين كلاهما يعتبر إهدارا لطاقات الأمة، وزجا لها في نفق مظلم مسدود. أما الموقف الأول فهو الموقف المائع الذي لا لون له ولا طعم، وهو الذي وصفته قبل بالهلامي. وأما الموقف الثاني، فيتمثل في الاجتهاد إلى أقصى الحدود، في ربط تنمية البلد الأصيل بعجلة التبعية للأجنبي، ليدور حيث دار، ملغيا أي اعتبار لمقومات الأمة وحاجات إنسانها وتطلعاته الخاصة، الأمر الذي من شأنه أن يعمق هوة التخلف والعجز،

---

[39] – المضامين التنموية للثقافة الإسلامية، محاضرة ألقيت بجمعية النبراس الثقافية ضمن ندوة "الثقافة والمجتمع ". 29 ذو القعدة 1418هـ 28 مارس 1998.

بقدر ما يعمق الشعور بالاغتراب لدى الإنسان المسلم كفرد ومجتمع وأمة على حد سواء، ويخلف جراحا غائرة، لا مجال لبدء التئامها وشفائها، إلا بوضع وإرساء دعائم استراتيجية إنمائية روحها الإسلام الذي يكرم الإنسان، ويحثه على عمارة الأرض وفق هدى الله ومنهجه القويم، الذي يضمن التوازن ويؤمن السعادة في الدنيا، والخلاص في الآخرة.

إن وسائل التنمية في ظل التبعية للآخر، تصطبغ لا محالة بصبغة الغرب في جميع أبعادها ومستوياتها. إن خلاصة المناخ الثقافي الذي يصنعه مسلسل التبعية، أو بتعبير أدق عجلتها الساحقة، تفضي لا محالة إلى إنتاج إنسان يحاكي النموذج الغربي في مثالبه الفكرية، ويعيش اضطرابه القاتل، وربما اضطرابا أشد عتوا، لكونه يتحمل عواقب شروده وضياعه الفكري والمقصدي، ويزيد عليه بشعور الاغتراب عن ذاتيته.

إن طرح سؤال التنمية، لابد أن يتخذ صبغته الجادة في مجتمعنا، وأن يبرح مرحلة المراوحة والضياع التي تنتهي لا محالة ـ إن وقع الإمعان فيها والإصرار عليها ـ إلى الإبادة الحضارية، أو إلى تعميق العبودية للغرب. والطرح الجاد لابد أن يمر عبر الإجابة الصريحة والجادة عن السؤال الهام: "أية تنمية نريد؟" وهو مرتبط ارتباطا عضويا بالسؤال من نحن؟.

إنه لا مناص عند مواجهة المشكلة بهذا الشكل من الاختيار بين منظورين للتنمية، إما المنظور الإسلامي وإما المنظور الغربي للتنمية، واختيار الأول يعني العودة إلى الذات والاستفادة مما يتيح الارتباط بالمنبع الذي لا يغيض، منبع الإسلام الذي يسمح بتفجير طاقات الإنسان والمجتمع إلى أقصى الحدود في إطار التوازن والحفاظ على إنسانية الإنسان وصون كرامته.

أما اختيار الثاني، فيعني اختيار الانسلاخ من الذات والذوبان في الآخر، وتلك مصيبة المصائب التي فرضت على كثير من الشعوب نتيجة صفقة بيع وشراء خاسرة أبرمتها بعض الأنظمة مع المركز الأوربي (الغربي) وكمثال صارخ على ذلك: تركيا. إن الاختيار بين هذين المنظورين هو اختيار بين منظور واسع الأفق يراعي الشمول والحق والعدل، وبين منظور ضيق الأفق محدود الأبعاد، قائم على قاعدة مهزوزة من الذرائعية والميكيافيلية.

يقول الأستاذ منير شفيق مميزا بين هذين المنظورين للتنمية: "فعندما تكون النظرة الأساسية قد وضعت للحياة هدفا يرمي إلى تحقيق أقصى درجات الرفاه المادي أو أقصى مستويات الثورة والقوة المادية، سوف يترتب على ذلك نهج كامل في التفكير والحياة وبناء العلاقات.

أما إذا كانت النظرة الأساسية شاملة لمختلف الحاجات والأهداف الأساسية للإنسان ـ الروحية والفكرية والنفسية والمادية ـ وعلى مستوى عالمي يشمل كل الشعوب، وعلى مستوى كل مجتمع، فإن السعي وراء الثروة أو الإنتاج أو القوة المادية، سوف يهبط إلى مستوى أدنى من ذلك المستوى، لكي يتوازن مع السعي لتحقيق الأهداف الأخرى"[40].

وأعود إلى النقطة المتعلقة بالجواب على السؤال: "بماذا ننمي؟ لأقول بأن مجمل الوسائل تصب في الإنسان الذي هو وسيلة التنمية وغايتها، فالتربية الأسرية والمدرسية، وما تبثه وسائل الإعلام، كل ذلك يهدف إلى تشكيل عقل الإنسان وصياغة رؤيته للحياة وبناء شاكلته الثقافية، ومن تم تزويده بأسلوب العمل والسلوك واتخاذ المواقف مما يجري حوله من أحداث.

وإذا كان الاتفاق يكاد يكون تاما بين جميع الشعوب، أو بالأحرى خبراء التربية والتنمية فيها، على أهمية الإنسان المركزية في التنمية، وهو ما يسمى في الأدبيات والتقارير والاستراتيجيات بـ"الموارد البشرية" في مقابل الموارد المادية، فإن الاختلاف الحاد والصارخ يفرض نفسه فيما يتعلق بأسلوب تشكيل الإنسان وبنوعية الأهداف التي ترسم له كإطار للعمل والممارسة، وكرسالة تبرر وجوده على هذه الأرض.

وسأتناول فيما يلي موقع المنظومة التعليمية كوسيلة للتنمية، وما إذا كانت بوضعها الحالي تشكل محضنا ملائما لصنع التنمية موفرا لشروط ذلك، أم أنها ـ على العكس من ذلك ـ تعوقها وتضع العراقيل في طريقها.

---

[40] – الإسلام في معركة الحضارة، دار النشر للكلمة، ط.**1**، **1981** بيروت لبنان.

ثانيا: المنظومة التعليمية المغربية؛ هل هي وسيلة تنمية أم تعويق للتنمية؟:

من المعلوم لدى خبراء التربية، أن أي منظومة تربية يراد لها أن تكون جديرة بكونها كذلك، لا مناص لها من التوفر على شرط أساس، إنه شرط الاتساق المنطقي والانسجام الفلسفي بين مختلق العناصر والمكونات التي تدخل في نسيج تلك المنظومة. إن أي مردود يُتوخى إخراجه من صلب تلك المنظومة، رهين بذلك الاتساق والانسجام، بغض النظر عن مواقفه الرؤية الفلسفية التي توجه المنظومة للحق أم لا.

أما المنظومة التعليمية الموافقة للحق المنسجمة مع الفطرة، فلابد أن يقوم بناؤها على دعامتين:

الدعامة الأولى هي: توفر مشروع تربوي واضح المعالم والأهداف، تسنده فلسفة تربوية مؤسسة على حقائق الوحي.

أما الدعامة الثانية فهي بناء منهج تربوي متكامل العناصر يحافظ على الثوابت ويراعي المستجدات.

غير أن واقع المنظومة، يكشف بجلاء عن انعدام الدعامتين المذكورتين، ومن ثم عن انتفاء مطلب الاتساق المنشود، وهو ما يجعل هذه المنظومة معرضة للإصابة بتشوهات عديدة في هيكلها وأطرافها ومفاصلها، ولحمل بذور أو جراثيم التعويق في رحمها وأحشائها، بحيث لا يخرج سليما معافى من مستهدفيها إلا من رحم الله.

إن الحكم على "المنظومة" التعليمية بعدم الاتساق، ظل ساريا عليها، عبر كل المراحل التي عاشتها منذ بداية خروج الاستعمار العسكري إلى الآن. ولربما كانت المرحلة الحالية، أشد إخلالا من ذي قبل بمطلب الاتساق والانسجام. ونظرة فاحصة إلى "الميثاق الوطني للتربية والتكوين" الذي يراد له أن يقود مسيرة التعليم، على مستوى التصور ورسم الأهداف العليا، في المرحلة المقبلة، يكشف عن ازدواجية في الولاء العقدي والتصوري المرجعي، على مستوى التصريح، وعن وحدة في ذلك الولاء، على مستوى الروح العامة المهيمنة على مجمل مفاصله ودعاماته، واختياراته الكبرى. وتترجم هذه الوحدة عن نفسها من خلال الإلحاح البارز على الدعوة إلى احترام المواثيق والاتفاقيات الدولية. ويكفي أن نشير في هذا الصدد إلى ما ورد في "الميثاق" بالصفحة الثالثة من دعوة إلى انفتاح المجتمع المغربي "على معطيات الحضارة الإنسانية العصرية وما فيها من آليات وأنظمة تكرس حقوق الإنسان وتدعم كرامته" وإلى ما ورد بالصفحة الخامسة حيث يحث "الميثاق" على أن: "تحترم في جميع مرافق التربية والتكوين المبادئ والحقوق المصرح بها للطفل والمرأة والإنسان بوجه عام، كما تنص على ذلك المعاهدات والاتفاقيات الدولية المصادق عليها من لدن المملكة المغربية. وتخصص برامج وحصص تربوية ملائمة للتعريف بها، والتمرن على ممارستها وتطبيقها واحترامها"(ص:5).

إن المفروض في المنظومة التعليمية، لكي تكون تنموية بامتياز، أن تضطلع بمهمة التشكيل المحكم لشخصيات المتعلمين، وذلك بتنمية مختلف القدرات والمواهب والملكات والاستعدادات، كل بحسب ما خلق له، إذ كل ميسر لما خلق. ولن يكتب التوفيق للمنظومة التعليمية في إنجاز هذه المهمة الحيوية الرائدة، إلا بشرط توفر عنصر التلاحم بين المكونات والأركان التي تنهض عليها هذه المنظومة من أهداف ومحتوى وطرائق وأساليب التدريس فضلا عن المدرس الذي يمثل قطب الرحى ضمن كل ذلك.

ويجدر التنبيه هنا على حقيقة جوهرية مفادها أن المقدار الذي تفقده المنظومة من القدرة والكفاءة في تحقيق أهدافها المنوطة بها في تنمية الناشئة وإخراج مكوناتها من القوة إلى الفعل، يتناسب طردا مع مقدار ما يعتريها من عوامل التناقض والاختلال، وهذه العوامل هي عينها ما تصبح المنظومة بسببه معوَّقة، ثم معوَّقة بفعل كونها غذاء لأجيال المتعلمين، تنتقل عبره العلل والتشوهات، فالأمر في ذلك شبيه بما تحمله الجينات الوراثية من أمراض تنقل من الأم إلى الوليد، مع ما هنالك من فوارق واضحة.

وسأقدم فيما يلي بعض مظاهر التعويق في المنظومة التعليمية.

- بعض مظاهر التعويق في المنظومة التعليمية:

إن أول ما يسفر عنه فحص هذه المنظومة وتشريحها من منظور الفلسفة التربوية الإسلامية، هو أنها منظومة عمياء، لأنها تنظر إلى مستهدفيها على خلاف ما هم عليه في الواقع، أو أنها تعمى عن إبصارهم باعتبارهم هوية متميزة لها وجودها الخاص وكيانها الأصيل، واحتياجاتها الجوهرية.

والسبب في ذلك راجع إلى المنظومة تستعمل منظارا مستوردا، يشوه ما وراءه، ويحجب بدل أن يشف ويكشف، إنها الفلسفة التربوية المستوردة أو الهجينة. وقد سبق أن ألمحت إلى ذلك.

المظهر الثاني من مظاهر التعويق الذي تشكو منه المنظومة هو كونها عرجاء، أو بالأحرى بتراء، لأنها تسير على رجل واحدة، وما ذلك إلا بسبب ضمور الجانب الروحي الوجداني في كيانها. إن الطابع المادي الجاف يلقي بضلاله الكثيفة عليها. وغير خاف ما يورثه ذلك من تفلت للنفوس بفعل تضخيم الجانب الغريزي وما يستتبعه ذلك من إهدار وضياع، ومن انهيار وبوار في نهاية المطاف. يقول الدكتور ماجد عرسان الكيلاني مبينا عواقب انحسار الروح لحساب المادة: "أما إذا انحسرت إرادة العقيدة والقيم، وهيمنت إرادة الطعام وإرادة النكاح، فصارتا هما الهدف، وما يقابلها في "مثل السّوء" هو المثل الأعلى، فإن التربية تكون قد خرجت عن مسارها السليم. ولذلك فإن نظم التربية التي تجعل الرفاهية المادية وزيادة الدخل وثقافة الاستهلاك أسمى درجات المثل الأعلى الذي تتحرك نحوه إرادة المتعلم، لا تعتبر في الواقع - هي النموذج لنظم التربية، لأنها تهمل إنسانية الإنسان. إن التربية التي تجعل مثلها الأعلى هي الرفاهية المادية وثقافة الاستهلاك، تفرز عددا كبيرا من الإرادات الفرعية الفاسدة ذار الآثار السلبية مثل إرادة الدنيا (منكم من يريد الدنيا) (آل عمران: 105)...

(فاعرض عمن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا) (النجم: 29) وإرادة الفحشاء: (قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك تعلم ما نريد). (هود: 79)"[41].

إن المظهر المتمثل في انحسار "إرادة العقيدة والقيم" لحساب، "إرادة الطعام وإرادة النكاح" يجد تجسيده وتجلياته فيما تشحن به محتويات المنظومة المعرفية من قيم متفلتة تعزف على أوتار الغريزة في المتعلمين وتضخم فيهم جانب الطين، بما يستتبعه ذلك من تبلد في الإحساس، وانطفاء للفكرة وضعف وتلاش في الحيوية والمبادرة. ومما يعطي للقيم الفاسدة والمعارف المغشوشة سلطانها الخطير، هو كونها تقدم في أثواب الفن وقوالب التفكير الفلسفي المنطقي الرصين الذي يخلب الألباب، التي تعاني من فقدان الحصانة العقدية، ومن ضعف الحاسة النقدية القادرة على غربلة الأفكار والتمييز فيما بين السليم والسقيم. إن تكثيف عملية القصف الموجهة إلى عقول التلاميذ ووجدانهم، تصيبهم بإعاقات بليغة يجرون عواقبها الوخيمة على حياتهم وتجعل منهم عامل تثبيط وتلويث وإعاقة لسير المجتمع.

- ويرتبط بالمظهر السابق من مظاهر الإعاقة والتعويق في بنية المنظومة التربوية ذلك المتعلق بالمدرس، الذي لا نخطئ الصواب، إذا قلنا بأنه يمثل قطب الرحى فيها، فهو بحسب ما يحمله من رؤى وتصورات، وما يحظى ويتمتع به من قدرات، يعتبر عنصرا فاعلا ومؤثرا، إما في اتجاه الهدم أو في اتجاه البناء. ومما يخلف شعورا بالأسى والامتعاظ أن منظومتنا التعليمية لم تعدم في جميع أطوارها، فئات من المدرسين في مختلف المواد، يمارسون عملية الهدم بوعي أو بغير وعي، بالحال أو المقال أو بهما معا. والسبب في ذلك كامن في أن المسؤولين عن المنظومة التربوية، لم يجعلوا في حسابهم أهمية الجمع بين القوة والأمانة كمعيار لاختيار المدرس الذي يكلف بأمانة إعداد الأجيال.
- في ظل كل المعوقات التي تعاني منها المنظومة التربوية، وغيرها مما لم أذكره، ماذا عسى أن تقدمه المادة الإسلامية في المجال التنموي؟ بتعبير آخر ما هي آفاق مادة التربية الإسلامية التنموية في ضوء المعطيات السالفة الذكر؟

ثالثا: آفاق المادة الإسلامية التنموية في ضوء ما سبق:

إن ما سبق من معطيات وحقائق، يضعنا أمام حقيقة دامغة، هي أن معوقات "المنظومة" التعليمية تشكل في حد ذاتها معوقات للتنمية، إن واقع عدم الانسجام بين مكونات "المنظومة"، أو بين محتوياتها القيمية يمثل عامل اضطراب وتشويش على عقليات المستهدفين، يزيده تفاقما وحدة ما تشكو منه تلك "المنظومة" من ازدواجية لغوية قاتلة، تفعل فعل السم الذي يحد من فاعلية الفكر وانطلاقه في مجالات رحبة للإبداع والابتكار.

---

[41] – "في مقومات الشخصية المسلمة أو الإنسان الصالح"، سلسلة كتاب الأمة رقم: **29**، مركز البحوث والمعلومات برئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية في دولة قطر. ط.**1**، شوال **1411/1991**.

وانظر للاستزادة: الإسراء: **103**. الصف: **8**. النساء: **44**. الأنفال: **71**. النساء: **91**. الأحزاب: **13**. الفتح: **15**. الصافات: **98**. المؤمنون: **24**.

- بين منهج التربية الإسلامية والمادة الإسلامية:

إنه لابد ليقوم تحليل القضية على قاعدة من الوضوح، لابد من التمييز، بين ما تختزنه التربية الإسلامية بالمفهوم الواسع، أي كإطار متكامل من المعارف والخبرات التي تخاطب الإنسان في أبعاده كلها، في ضوء المظاهر الثلاثة للعبادة: (المظهر الديني والمظهر الاجتماعي والمظهر الكوني)[42]، وبين المادة الإسلامية كما هي مقصودة في موضوع الندوة[43].

فالتربية الإسلامية بالمفهوم الذي أسلفته، تملك آفاقا رحبة وقدرات هائلة على صنع نموذج الشخصية المسلمة المتصفة بالرسالية، المتسلحة بوعي حاد بقضايا أمتها، المسخرة لطاقتها، وما هو متاح لها، إلى أقصى حدود التسخير.

ويتراوح ما يمكن أن تحققه التربية الإسلامية كمنهج واسع متكامل في تعاملها مع الإنسان، بين مستويين للعطاء، أو كما عبر عن ذلك د. ماجد عرسان الكيلاني بين حدين: أدنى وأعلى، مع الحفاظ على التمييز والتفوق على النماذج التي شكلت في غير مدرسة الإسلام، حتى مع نزول العطاء إلى الحد الأدنى. يقول في ذلك الدكتور ماجد عرسان الكيلاني: "يضع القرآن الكريم لنسبة "المخرجات" المتوقعة من الأمة المسلمة حدين اثنين: حدا أعلى يتحقق إذا أحسنت الأمة استثمار المدخلات المبذولة، وحدا أدنى إذا كان هناك ضعف في الخبرات والمهارات اللازمة لاستثمار "المدخلات". وإلى الحدين المذكورين يشير قوله تعالى: (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبون ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون. آلان خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين) (الأنفال: 65 – 66).

- أما ما يمكن للمادة الإسلامية أن تقدمه، فهو لا يمكن أن يرقى إلى ما يتيحه منهاج التربية الإسلامية، ولكنه مع ذلك، يستطيع أن يقدم الكثير في مجال تأمين جملة من العناصر الهامة والشروط الضرورية للتنمية، والحفاظ عليها على حد سواء، ويتأسس هذا الحكم على حقيقة نفسية هامة، تتمثل في اقتران التنمية بالتزكية في سياق الرؤية الإسلامية. وإن استنطاق مفهوم التزكية في اللغة، وفي اصطلاح علماء الإسلام يؤكد لنا هذه الحقيقة.

- فقد عرفت التزكية لغويا "بأنها الإصلاح والتطهير والتنمية. يقال: يزكي من يشاء أي يصلح. وتزكيهم بها: أي تطهرهم. وزكاة المال: تطهيره وتثميره وإنماؤه. والزكاة: الطهارة والنماء والبركة"[44].

- أما اصطلاحا ـ فقد عرف المفسرون والعلماء الأوائل مصطلح التزكية. طبقا لمستويات المعرفة والتطبيقات التي خبروها في أزمتهم وأمكنتهم. فهي عند الطبري ـ مثلا ـ تعني: تطهير الناس من الشرك وعبادة الأوثان، وتنميتهم وتكثيرهم بطاعة الله. وعند ابن تيمية هي تربية القلب وتنميته بالكمال والصلاح، وذلك بحصول ما ينفعه ودفع ما يضره. وتزكية النفس بالصالحات وترك السيئات، أو هي إزالة الشر وزيادة الخير"[45].

ويجدر التنبيه هنا إلى أن مفهوم التزكية وإن كان شاملا لجميع أبعاد الوجود الإنساني، في المفهوم الإسلامي، إلا أن تزكية المحتوى الداخلي للإنسان تظل هي المنطلق والمحرك لتزكية مختلف جوانب الوجود الأخرى، ذلك الوجود الذي يشكل البناء الحضاري أو العمران البشري إحدى حلقاته الأساسية.

- إن أعلى وأرقى وأشرف شيء أو عنصر تستهدفه عملية التنمية (التزكية) هو قلب الإنسان، الذي عليه المدار في صلاح ما عداه، وهذه حقيقة ناصعة ينطق بها حديث الرسول صلى الله عليه وسلم: "ألا وإن في الجسد مُضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب"[46].

---

[42] – كما استعملها الدكتور ماجد عرسان الكيلاني. فلسفة التربية الإسلامية مجلة الهدى. العدد **21**، ص: **16**.

[43] – ندوة المادة الإسلامية في التعليم المغربي، وقضية التنمية من تنظيم جمعية خريجي الدراسات الإسلامية العليا والجمعية المغربية لأساتذة التربية الإسلامية بالرباط بتاريخ **14** و**15** أبريل **2001**.

[44] – د. ماجد عرسان الكيلاني. مناهج التربية الإسلامية والمربون العاملون فيها. مؤسسة الريان. بيروت. لبنان ط مزيدة ومنقحة (؟) **1998/1419** ص **134** (نقلا عن ابن تيمية، الفتاوي، كتاب السلوك ج **10** ص**96**).

[45] – المرجع السابق (ص: **96**).

[46] – صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه.

 وإن المدار في تزكية هذا القلب وتنميته، إنما هو على تحريره من العبودية لما سوى الله عز وجل. يقول الدكتور البوشيخي: بأن "طبيعة العلم الشرعي تنموية، لأنه يحرر الإنسان تحريرا كاملا، يحرر عبد الله مما سوى الله عز وجل"[47]. ويرتبط ارتباطا حميما عضويا بهذا الجانب من التنمية أو التزكية "تزكية إنسان التربية الإسلامية من مرضي الطغيان والاستضعاف" وتنمية حالة "الوسطية" التي تمثل العافية والصحة النفسية والسلوكية. والطغيان مرض نفسي يصيب النخبة القوية، فتعطى وتتجاوز رتبتها الإنسانية إلى منزلة التألـه - أي ادعاء ملكية "الأشياء" والتصرف بمصائر "الأشخاص". أما "الاستضعاف" فهو أيضا مرض نفسي يصيب الأكثرية - فيفقدها إنسانيتها ويحيلها إلى قطعان بشرية مدجنة لا تملك شيئا، ولا تشارك في تقرير مستقبلها ومصيرها. وأما "الوسطية" فهي العودة بكل من الطغاة والمستضعفين إلى حالة العافية التي تجسدها طاعة الطرفية لله، وإفراده بالملكية والطاعة والتصرف في مظاهر الحياة الدينية والاجتماعية والكونية. ومحور هذه الوسطية، هو الاسترشاد بقيم العدل، وما يتفرع عنه من قيم تشيع الحرية والصلاح والتقدم"[48].

 والإسلام بالقدر الذي يوجه عنايته لتزكية القلب وتطهيره وتحليته، ليخلص لرب العالمين، فيتحرر من كل نزعة إلى الاستكبار أو الاستضعاف، يشمل بهذه العناية قوى التدبر والتفكر والاعتبار، عبر استحثاث الإنسان إلى شحذها باستعمالها فيما هي ميسرة له ومهيأة لإدراكه. ومن المعلوم أن استجابة الإنسان المسلم لهذا التوجيه، كوجه من وجوه التعبد لله عز وجل، هي التي أثمرت تألق العقل المسلم في مضمار الكشف العلمي والتعامل الذكي مع ظواهر الكون والتاريخ، مما تمخض عن ذلكم الاكتشاف الرائد لقواعد المنهج التجريبي وكذا لعلم العمران البشري، ولم يكن ذلك ليحصل، لولا ذلك التفاعل العميق مع كتاب الله عز وجل والنفاذ إلى أعماق دلالاته، والتقاط إشاراته بوعي ذكي وبصيرة نفاذة.

 وليتكامل النسق القيمي الإسلامي في أبعاده التنموية، فإنه يلتفت إلى ما من شأنه أن يجعل الكيان الإنساني مؤهلا للدخول في علاقات إيجابية بناءة - تقتضيها وظيفة الاستخلاف وعمارة الأرض - تستوعب المحيط الاجتماعي الإنساني استيعابها للمحيط البيئي والكوني، ليستقيم الكل ويستوي على قاعدة من التوازن والانسجام، تؤمن سلامة البيئة وسلام المجتمع على حد سواء. إن جملة واسعة من القيم التي يعمل الإسلام على غرسها في نفوس أفراد المجتمع المسلم، كفيلة بتحقيق كل ذلك، فهي التي تتأسس عليها "الأصول النفسية للعملية التكافلية التنموية"[49].

إن قيما من قبيل الأخوة والرحمة والإيثار والعفو والعدل والإحسان والتقوى، والصدق والوفاء، والشعور بالأمانة وغيرها، تشكل الأرضية الصلبة وصمام الأمان الكفيلين بنجاح أي مشروع تنموي يعلن في الناس، شريطة استيفاء جميع العوامل الضرورية للتنمية.

 من خصائص النسق القيمي الإسلامي ومميزاته:

وإذا كانت بعض القيم التربوية - التنموية مشتركة بين جميع الشعوب، نظرا لوجود بعض المواريث الثقافية المترسبة فيها من بقايا تعاليم الديانات، فإن ما يميز النسق القيمي الإسلامي عن غيره، إضافة إلى صفة الربانية، صفة التكامل والشمول التي تستغرق كل أبعاد الوجود الإنساني ضمن تناسق عجيب، وصفة الفاعلية المتأتية من الشحنات الروحية الهائلة المرتبطة بعنصر الغيب، الذي يجد تجلياته الكبرى في خشية الله عز وجل ومراقبته، ورجاء اليوم الآخر. إن الآثار التنموية المترتبة عن تغلغل عناصر هذا النسق في كيان الفرد المسلم وتحوله (أي النسق) إلى نمط مهيمن على سلوك الناس محدد لمواقفهم، قد ترتقي بشعور هؤلاء إلى مستوى رفيع، يجعلهم يقدمون الواجب على الحق، في ممارستهم الحياتية. وواضح ما يثمره تجسيد هذه المعادلة في الواقع من بركة في المجال التنموي، وفي مجال العدالة الاجتماعية. يقول الدكتور الشاهد البوشيخي: "لو شغلنا الناس بأداء الواجب

---

[47] – المضامين التنموية للثقافة الإسلامية / مرجع سابق...

[48] – د. ماجد عرسان الكيلاني/ مرجع سابق (ص: **135–136**).

[49] – مقدمة الأستاذ عمر عبيد حسنة، لكتاب د. يوسف إبراهيم يوسف . إنفاق العفو في الإسلام بين النظرية والتطبيق .كتاب الأمة رقم **36**، إصدار مركز البحوث والمعلومات بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة قطر.

لاسترحنا من المطالبة بالحقوق، وهذا الأمر معكوس في الأحاديث النقابية"[50]. لقد جعل الرسول (ص) ممارسة هذه المعادلة الرفيعة حلا ناجعا وعلاجا شافيا من مرض الأثرة الذي يكفي لوحده أن يمزق النسيج الاجتماعي وأن يعرض أي مشروع تنموي للإخفاق الحتمي. يقول الرسول (ص): "سيكون بعدي أثرة... أدوا الله الذي عليكم واسألوه الذي لكم"[51].

نستخلص مما سبق أن الصفة الثالثة المميزة للنسق القيمي الإسلامي هي صفة العدل.

ومن غريب المفارقات أنه في الوقت الذي يتساءل بعض الناس المحسوبين على التربية عندنا عن جدوى مادة التربية الإسلامية في نظامنا التعليمي، نجد مؤتمرات ضخمة تقام في المجتمعات التي بلغت شأوا بعيدا في الإنتاج المادي، تخصص لبحث مسألة القيم في زيادة الإنتاجية. "ومن أمثلة هذه المؤتمرات، المؤتمر الثاني لاجتماعيات العلوم الاقتصادية الذي عقد في آذار (مارس) عام 1998 في جامعة جورج تاون في مدينة واشنطن العاصمة حيث حضر أكثر من 800 مشترك بينهم متخصصون في علم النفس وعلم الاجتماع والعلوم السياسية، والفلاسفة وعلماء الاقتصاد وطلبة إدارة الأعمال، وقدم حوالي (200) مائتي بحث نوقشت في حوالي 50 جلسة، ثم جمعت خلاصة الأبحاث المشار إليها في مجلد يحمل عنوان: "الأخلاق والعقلانية والفاعلية" وكان محور المؤتمر المذكور امتدادا للمؤتمر الأول الذي عقد في كلية إدارة الأعمال بجامعة هارفرد عام 1989. ولقد تركز هذا المحور حول مراجعة الأسس التقليدية القديمة للاقتصاد، والتي تفصل بين التجارة والأعمال، وبين القيم والمسؤولية الأخلاقية، ثم مناقشة أثر القيم والمسؤولية الأخلاقية في زيادة "فاعلية" إنتاج الشركات الكبرى"[52].

وتعد مثل هذه المؤتمرات، في بيئة قائمة على فلسفة حياة مادية، مؤشرا على بداية صحوة فكرية، ولو كانت حبيسة النزعة المادية والفلسفة البراجماتية اللاهثة وراء التكديس والرفع من وتائر الإنتاج والمنافع المادية. ولعلها تنتهي بعد حين بفعل الصدمات والأزمات وتعمق الإحساس بالشقاء وفداحة الخسائر على صعيد إنسانية الإنسان وكرامته، إلى الارتفاع بنظرتها إلى المستوى الشمولي للقيم الأخلاقية كبديل لإخراج الإنسانية الشاردة من مأزقها الحضاري العويص.

ـ بين الخاص والعام في العلاقة بين القيم والتنمية:

إن معالجة البعد التنموي للقيم التربوية يمكن أن يتخذ منحيين، يتعلق أولهما باستجلاء معالم البيئة الثقافية العامة التي يتم نسج خيوطها على أساس جملة من القيم ذات الطابع العقدي كالإيمان بالله عز وجل واستحضار خشيته ومعيته، وذات الطابع المنهجي كالحرص على النظام والصرامة في التعامل مع قضايا المجتمع وهمومه، وإعطاء كل ذي حق حقه، أو ذات الطابع النفسي كحب العمل والتفاني فيه، والحرص على إتقانه، وشيوع خلق الرحمة والتراحم والمحبة بين أفراد المجتمع المسلم، وما إلى ذلك من قيم من شأنها، إن تاصلت في بنية المجتمع، أن تشيع فيه جو الأمن والثقة والاطمئنان، وهي عناصر أو قل مقومات أساسية لا غنى عنها لأسي سلوك أو ممارسة تنموية راشدة، فعالة ودائمة.

ـ أما المنحى الثاني فيتعلق بإبراز الحمولة التنموية المباشرة التي تكتسيها بعض القيم وتحولها إلى هيئة راسخة فيه، تتجدد حيويتها باستمرار، بفعل تجدد الإيمان والارتقاء في معراجه. وأذكر من جملة القيم التي تملك هذه الخاصية، ما يتعلق باستجابة الفرد المسلم لأمر الإسلام بدفع الزكاة، أو بالتصدق من فائض المال فيما سوى الزكاة مصداقا لقوله عليه الصلاة والسلام: "إن في المال حقا سوى الزكاة"[53]، أو بمبادرة إلى توقيف بعض ما أفاء الله به عليه، في بعض وجوه الخير التي تسد الخلل وترتفع بمستوى المجتمع الاجتماعي، وتساهم في الحفاظ على توازنه.

ومن عجيب أمر النسيج التنموي في الإسلام أنه ثابت الحضور في الأحكام التشريعية، بقدر ما هو ثابت الحضور في القيم الأخلاقية التي تحدد اتجاهات ومعايير السلوك والمعاملة لدى الإنسان المسلم.

---

[50] – المضامين التنمية للثقافة الإسلامية/ مرجع سابق..

[51] – تخريج الحديث.

[52] – د. ماجد عرسان الكيلاني. التربية والتجديد. مكتبة دار الاستقامة مكة المكرمة، مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع. ط1/1418 – 1997 ص: 1413.

[53] – رواه الترمذي، كتاب الزكاة، باب ما جاء أن في المال حقا سوى الزكاة.

فبالإضافة إلى ما تمثله الزكاة باعتبارها رافدا حيويا للتنمية المتوازية في الإسلام، تمثل الوصية والميراث والنذور والكفارات، وغيرها روافد هامة في ذلك الاتجاه.

ـ وإذا كان الإسلام يحرص على صياغة شخصية قوية، من خلال تشربها واستنباطها لنسق تربوي فعال، ويضمن إقامة مجتمع مسلم يسوده الرخاء وتعمه البركة، فإنه يحرص بنفس القدر على تأمين ذلك وحمايته بدرء واستبعاد كل الممارسات المرضية الشاذة والانحرافات الخلقية التي تمثل ـ إن شاعت واستفحلت في البناء الاجتماعي ـ عوائق حقيقية لقيام التنمية أو معاول لنسف وإتلاف ما يمكن أن يكون قد أنجز من أعمال ومشاريع تنموية، لأن تلك الانحرافات تصيب المحور الذي عليه مدار التنمية في الصميم، وهو الإنسان، إصابتها لثمراتها ومخرجاتها على حد سواء.

ويدخل في هذه الانحرافات اعتماد النظام الربوي في الاقتصاد ـ والمعاملات المالية، والتعامل بالرشوة والمحسوبية، كوسيلتين لقضاء الحاجات واحتلال المواقع الحساسة، وتذليل العقبات المعرفية والإدارية. وغير خاف ما تمثله هاتان الجرثومتان كسرطان يمتص الطاقات ويهدر الكفاءات، وما يولده ذلك على صعيد الوعي الشعبي من شعور بالإحباط قد يفضي في الغالب إلى زعزعة الشعور بالانتماء لدى الضحايا والمقهورين، وفي ذلك ما فيه من تهديد للشبكة الاجتماعية وتهوين لنسيجها، وإضعاف لحيويتها وحصانتها. وغير خاف عن أولي الألباب أن شيوع أمراض من قبيل الرشوة والمحسوبية في أوساط المجتمع، إن هو إلا نتاج لنضوب معين القيم الإسلامية في نفوس مقترفي تلك المفاسد.

وهذه الحقيقة تشكل رسالة بليغة لدعاة تخليق الإدارة. فالعجب كل العجب من إعلان حملة في هذا السبيل في ظل غياب مدقع للإهمال بأصل الأخلاق، ألا وهي قيم الدين في كليتها وشموليتها.

ويندرج في الانحرافات المشار إليها مفاسد تتصل مباشرة بكيان الإنسان، وبإمكانيات الأمة، فهي تجهز على كليتين تعتبران مقومين أساسيين من مقومات التنمية: الإنسان والمال. ويبرز من ضمن هذه المفاسد، التعاطي للخمور والمسكرات ومقارفة الزنا وغيره من الموبقات، فهذه في مستوى من المستويات تؤدي إلى الإهدار والافتقار[54]، كما تؤدي إلى قلب مهول للتركيبة السكانية التي تصبح بعد حين ملوثة بجحافل الأبناء غير الشرعيين الذين يجرون وراءهم عقدا لا تنتهي، تفقد المجتمع هويته ومعنى وجوده، بقدر ما تفقدهم ذلك على المستوى الشخصي.

أما في مستوى أعمق مما سبقه، فإن مفاسد الخمر والزنا تؤدي إلى الفناء والانقراض[55].

إن الأوجاع والآلام التي تحيق بمجتمعات تغرق في الآثام، باهضة الكلفة على المستوى النفسي بقدر ما هي باهضة الكلفة على المستوى المادي.

وبقدر ما ينهى الإسلام عن مقاربة المفاسد المادية، ينهي عن السقوط في العلل والأمراض المعنوية التي تورث المجتمعات التي تسود فيها آفة الفقر، من ذلك ما يتعلق بالتبطل والتواكل، والتذرع بالقناعة بالكسب القليل، ذلك أن الإسلام يأمر بالاستزادة في الإنتاج بغير حدود، اللهم حدود الفطرة التي تعبر عنها أحكام الشرع الحكيم، والتي تؤدي مخالفتها حتما إلى تحول التنمية إلى لا تنمية، وهو ما حصل في الغرب بسبب قصة جنون البقر، وما جرى مجراه.

إن مسار التنمية يهدد من جراء الرعونة والاعتداء على الفطرة وتغيير خلق الله، كما يهدد بسبب الخلود إلى التبطل وتعطيل الطاقات التي خلقها الله عز وجل لتنتج وتؤتي ثمارها اليانعة.

والتزام المنهج الوسط الذي لا تخالطه العلل، منهج الإسلام، هو وحده الكفيل بتجنيب الإنسانية داء الجنوح إلى حد الطرفين وما يورثه ذلك من مثالب وأزمات.

---

[54] – فاليابان على سبيل المثال تنفق ثلاثين مليار دولار على مدمني الخمور، وما ينفق في أوربا وأمريكا في الأبحاث المخصصة لمحاولات الكشف عن علاج للسيدا وكذا لمحاولة التخفيف من معاناة المصابين به يمثل أرقاما باهضة جدا. كما أن الأرواح التي تزهق بسبب حوادث السير التي من ورائها السكر تشكل نزيفا بشريا مروعا يترك آثاره البليغة على التنمية.

[55] – ينظر في بيان ذلك سلسلة مصطفى فوزي غزال التي من ضمنها: "أفول شمس الحضارة الغربية من نافذة الخمور (ج**4**) ومن نافذة الشذوذ الجنسي (ج**5**)، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط **1406/1986**، ففيها صورة قائمة عما يعانيه الغرب جراء هذه الموبقات.

يقول الشيخ محمد الغزالي في كتابه: "الإسلام والطاقات المعطلة": "فإذا رأيت طاقات معطلة وأعمالا مهملة وواجبات مهددة، فثق أن الذي ضاع من دين الله لا يقل عن الذي ضاع من دُنيا الناس. وثق أن الانهيار النفسي الذي جر هذا الضياع، قد أصاب الإيمان والخلق بمثل ما أصاب الحضارة والعمران. والدين قد يحمل أوزار التخلف والجمود ـ التي تلمح في بعض البيئات ـ لو أن نصوصه المحددة هونت من قيمة السعي، أو رغبت الناس عنه، أو لو أن ما يبقى في النفوس بعد تلاوة آياته، يوحي بالاستكانة والركود. لكننا نتدبر القرآن كله فلا نجد دعوة أحر من دعوته إلى الإيمان والإحسان والإصلاح ونتدبر سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا نجد رجولة تدانيها في الكفاح والدأب، والمصابرة إلى آخر رمق.

ونتدبر الأمة العربية التي ظهر فيها هذا الدين، فنجد أمة انطلقت بغتة بعد وقوف طويل وبرزت بعد خفاء مهين. ولم يكن الوقود الذي أشعل حركتها وأطلق ثورتها إلا هذا الدين"[56].

- وقفة خاصة عند مقررات مادة التربية الإسلامية في ضوء متطلبات التنمية:

إن التحليلات الواردة ضمن العنصر السابق وما ارتبط بها من أحكام، تكتسي طابع العموم، لأنها تتعلق بالمادة الإسلامية من حيث هي في ظل منظومة تربوية موسوعة بالتناقض والاضطراب، وبما تختزنه في ذاتها من قدرة على العطاء في مجال التشكيل وتحديد مسار التنمية.

وسأحاول ـ فيما يلي ـ أن أقف وقفة تأملية عند مجمل المقررات الدراسية لمادة التربية الإسلامية راصدا لما يمكن أن تقدمه للناشئة في ظل عالم يموج بصراع التكتلات المذهبية، وتسعى فيه قوى العولمة أن تلتهم الجميع وتفرض منظومتها القيمية على الكرة الأرضية برمتها، ضاربة عرض الحائط بمقولات التعدد الثقافي واحترام الخصوصيات علما بأن جوهر القيم التي يروج لها باسم العولمة لا تخرج عن كونها خلاصة لما انتهى إليه الفكر الليبرالي الرأسمالي المشبع بالمبادئ والتصورات الصليبية اليهودية، والذي يتبنى مقولات "نهاية العالم" ومقولة "صراع الحضارات".

ملاحظات أساسية:

إن أول ملاحظة ينبغي إبرازها وأخذها بعين الاعتبار، هي أن إلقاء مهمة التشكيل المذهبي وتعميق الشعور بالهوية لدى المتعلمين على عاتق ما يسمى بمادة التربية الإسلامية، هو أولا: مخالف لمقتضيات بناء المنهج التربوي التي تفرض ضرورة تكامل خبرات ومعارف جميع الوحدات الدراسية فيما يراد نقله من مبادئ وتصورات إلى الناشئة. وهو مطلب منعدم تماما في منظومتنا ـ كما سبق بيانه ـ ثم هو ثانيا يشكل عبئا ثقيلا على هذه المادة يفرض عليها أن تبذل جهدا استثنائيا في تحصين الناشئة ودرء ما يمكن درؤه مما قد يتسرب إلى كيانها من سموم.

لن تكون وقفتي عند مقررات التربية الإسلامية ـ بطبيعة الحال ـ وقفة تفصيلية تشريحية، لا أفقية ولا عمودية، فذلك ما يحتاج إلى دراسة قائمة الذات[57]، وإنما ستكون وقفة انطباعية استنباطية تستدعي خلاصة التجربة والمعايشة. انطلاقا من ذلك أقول: إن النجاح في صياغة النموذج المسلم الذي تتكامل فيه الإدارة الخيرة مع القدرة التسخيرية، رهين بالمربي القدوة الذي يمتلك المهارة الفنية المقرونة بالحكمة، فيكون النتاج المنشود عبارة عن شخص يتجسد في ذلك المركب الخير الفذ، ويكون قادرا على إعادة إنتاجه في المحيط الذي يتفاعل معه وفيه.

غير أن نوعية المربي الذي هذه ميزته، هي من الندرة بمكان، فإذا أضفنا إلى ذلك ما يمكن أن يعتري المقررات من ثغرات من حيث تنظيمها وتكاملها أو كفايتها، كان علينا أن نكون واقعيين فيما نعلقه من مآل على نوعية النموذج المتخرج من منظومة عرفنا مواصفاتها.

ـ ومع ذلك فإن خيرا عميما يمكن أن يرجى من المادة الإسلامية التي يتلقاها التلميذ في مختلف مراحل التعليم.

---

[56] – نشر الزيتونة للإعلام والنشر، باتنة الجزائر (ص: **26**).

[57] – أحيل هنا على دراسة مشتركة تم إنجازها بأكاديمية وجدة ساهم فيها صاحب المداخلة، تحت عنوان: "قراءة عمودية لكتب التربية الإسلامية في السلك الأول والثاني أساسي".

ـ فالعقيدة أو دروس العقيدة يمكن أن تشحذ حاسة الإيمان بالغيب لدى المتعلم وتربطه بربه من خلال تعريفه بصفاته العليا وأسمائه الحسنى.

غير أن نجاعة ذلك تظل رهينة بفعالية المدرس من جهة، وبمنهجية تقديم المادة من جهة أخرى، فلا ينتظر مثلا من المنهج الكلامي في تناول العقيدة، نتائج هامة في تحريك وجدان المتعلم وإيقافه على حقائق الألوهية، وما تستوجبه من تعظيم وإجلال وطاعة وإنابة وامتثال.

والحقيقة أن دروس العقيدة في مقرراتنا لا تزال تشكو من غلبة منهج المتكلمين، وقلما استلهمت المنهج القرآني الذي يقوم على عرض لصفات الله نابض بالحركة، ملامس لشغاف الفطرة، مستقطب لجماع أحاسيس الإنسان، ومداركه وأشواقه. وعلى الرغم من أن دروس العقيدة في مدارسنا، يمكن أن تؤدي بعضا من أهدافها في ترسيخ العقيدة الإسلامية بجميع أركانها، إلا أنه يظل دون المستوى المطلوب بكثير، في تنمية الحس الإيماني المتيقظ والمرهف لدى المتعلمين، مما يحول في كثير من الأحيان دون النجاح في إعداد الإنسان الرسالي التقي الرباني الذي يستصحب معية الله عز وجل ويتحرك بها في الحياة بكل إيجابية وفعالية، وينطلق في كل شأن من شؤونه، من محبة الله عز وجل وابتغاء رضوانه، واعيا أتم الوعي بأن الدنيا مزرعة الآخرة، فلا يدخر جهدا في زرع دنياه بالعمل الصالح وجعلها ميدانا فسيحا لخوض ملاحم العطاء والجهاد.

إننا إذا أخذنا على سبيل المثال ـ صفة من صفات الكمال الإلهي وهي العلم، وواحدا من أسماء الله الحسنى: الرازق، واستعرضنا إمكانيات المعالجة لهما، فإننا ننتهي إلى قناعة جازمة، بأن أنجع طريق وأبلغه في الاستفادة من الظلال التربوية الخاصة بهما، إنما هو الطريق، الذي يستوحي روح القرآن ـ في الفهم والتصنيف وضبط الدلالات والنتائج والآثار، وذلك في علاقة مع السنة الشارحة المبينة والسيرة التي تمثل النموذج السلوكي الحركي الأعلى لتجسيد قيمة العلم وما يقتضيه من أخلاق ينبغي أن تنعكس بوضوح على سلوك الإنسان المسلم.

وكذلك الأمر بالنسبة لصفة "الرزاق". فمعالجتها بالمنهج القرآني تشرع أمام الناشئة المتعلمة آفاقا ممتدة للضرب في مناكب الأرض واتخاذ الأسباب وتسخير السنن بعد كشفها، مع اليقين بأن الوقوف بباب الله عز وجل، بسلوك منهجه القويم، والتوجه الخالص إليه سبحانه وتعالى، وطلب عونه ومدده، كل ذلك هو الكفيل بفتح أبواب الرزق وإفاضة الخيرات والمباركة فيها، وتحريرنا أفرادا وجماعات وأمة من الافتقار إلا إليه سبحانه وتعالى.

ـ وإذا انتقلنا من العقيدة التي هي أساس المنهج الذي يمده بالقوة والفاعلية، ويمنحه الاستمرار والتجدد والنماء، إلى الجانب الأخلاقي، فإننا نلاحظ ـ من خلال استقرائنا لمفردات مكون الأخلاق ـ أنه رغم ما يكتسيه من أهمية، وما ينتظر منه من فوائد على مستوى التقويم والبناء التربوي، فإنه يظل قابلا لإعادة النظر فيه، إعادة هيكلته وتنظيمه وفق مخطط أكثر إحكاما وأوفر جنى. وهنا يمكن أن نضع جملة من الأسئلة الهادية التي تفتح أمامنا مجالا خصبا للبحث عن الصيغ الأكثر نضجا وملاءمة للفطرة وذلك من قبيل ما يلي:

1 ـ أيها أكثر نتاجا وأعمق أثرا، أهو تدريس الأخلاق عن طريق إثارة المشاكل السائدة ومعالجتها من منظور الإسلام الشامل للحياة، أو هو تقديم هذه الدروس تقديما نظريا جافا من خلال عرض مجموعة من القيم، قلما يكون معززا بأمثلة من الواقع ومسوقا في ضوء الإطار الشامل للإسلام؟.

2 ـ أيها أعمق معالجة لدروس الأخلاق، أهي الطريقة التي تمزج بين الأخلاق وبين العقيدة والسيرة، أم هي تلك التي تعالج الأخلاق في معزل عن ذلك؟

3 ـ أي سلم للأولويات ينبغي أن يعتمد في اختيار وترتيب المواضيع والقيم المعالجة، وما هي المعايير التي يتأسس عليها بناء ذلك السلم؟

4 ـ عندما نكون بصدد اختيار المفردات المشكلة لقوام المقررات في "مادة التربية الإسلامية"، ما هو المعيار الدقيق الذي نسترشد به لإقامة التوازن بين الحد الأدنى من المعارف الذي لا يجوز النزول عنه، وبين القيم والمخرجات التربوية المتوخاة من وراء ذلك؟.

فعلى سبيل المثال، ما هو الحد الأدنى الذي لا يجوز لتلميذ الثانوي جهله فيما يتعلق بعلوم القرآن، وعلوم الحديث وأصول الفقه، علما بأن أهداف مرحلة الثانوي هي أبعد ما تكون عن التخصص في مثل

هذه العلوم.. وعلما بأن قضايا وإشكالات ثقافية واجتماعية وتربوية تلح على أذهان التلاميذ الذي يتعرضون لعمليات استدراج رهيبة لتبني مواقف بشأنها خارج مذهبية الإسلام؟.

ملامح مشروع تصور أولي لبناء منهاج لمادة التربية الإسلامية يستجيب لمتطلبات التنمية

أبدأ بالإشارة أولا وبتوكيد ما سبق أن ذكرته قبلُ من أن وضع المادة التربية الإسلامية في ظل "منظومتنا" التعليمية وضع في غاية الصعوبة والحرج، نتيجة الأسباب والعوامل التي أسلفت بيانها. ومن ثم فإن دور المادة الإسلامية وسط مفردات المواد الأساسية الأخرى، يكاد أن يكون مماثلا إلى حد بعيد لدور رجل موسوم بالتعقل والصلاح وسط أقوام فيهم من خلط عملا صالحا وآخر سيئا، وفيهم من كثرت ذنوبه حتى غطت على حسناته وفيهم العربيد الغارق في شهواته بل ولا نعدم في حالات غير نادرة من لا يتورع عن إعلان مروقه وارتداده، إن هذا الوضع يقضي بقوة أن تمارس مادة التربية الإسلامية دور الإنقاذ والبلاغ والبناء بأساليب غاية في الابتكار وتسخير المواهب والطاقات[58]. فهل من سبيل إلى ذلك؟ وكيف؟.

ـ إن أول عنصر ينبغي أن يتخذ موقعه في سياق المنهاج المنشود، هو عنصر العقيدة الذي يشكل أساسه المكين، وهذا من البداهة بمكان نظرا لمركزية العقيدة في نظام الإسلام القائمة على التوحيد الذي فجر في الإنسان طاقات هائلة، وزحزح من كيانه كل العوائق والعقد، التي صنعها الشرك بتصوراته الخرقاء وعقائده التي شلت قوى الناس وعطلت مواهبهم وقدرتهم على التفكير والعطاء.

ويكتسب عنصر التوحيد كأساس للمنهاج التربوي المنشود عظمته وبعده التنموي من كونه مجسدا للفطرة، ولتركيز الولاء لله الواحد القهار، وهو مناط لتركيز الطاقات الذي يجنب التيه والضياع والإهدار. يقول الله سبحانه وتعالى/ (أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار) (يوسف: 39).

ـ أما الملمح أو العنصر الثاني الذي ينبغي أن يكون قوي الحضور في المنهاج التربوي للمادة فهو عنصر العبادة الذي ينبغي أن يقدم في قوالب جذابة وأساليب متجددة، وأن تراعي في عدة التقديم والإنجاز، المرحلة العمرية ومستوى النضج العقلي والنفسي عند المتعلمين، كل ذلك في ارتباط وتضافر مع التطبيق أو التدريب العلمي الذي لم يلق أي اهتمام في مؤسساتنا التعليمية، وكأن حركة الأبدان يمكن أن تستقيم وتزكو في معزل عن صفاء الروح وخلوص توجهها لبارئها الذي تفضل عليها بالإيجاد والإنعام. وأذكر هنا على سبيل التمثيل ـ فيما يخص مراعاة مستوى النضج العقلي والنفسي للمتعلمين ـ أن الطريقة التي ينبغي أن يقدم بها درس الصلاة في المرحلة الثانوية، تختلف ـ إلى حد بعيد ـ عن الطريقة التي يقدم بها الطور الأول من التعليم الأساسي، فبينما يكتفي في هذا بتقديم ما يتعلق بالصلاة من طهارة وما يقوم عليه هيكل الصلاة من فرائض وسنن وما إليها، يعالج درس الصلاة في المرحلة الثانوية، وفق منظور أرقى، يتجاوز شكل الصلاة ورسومها، للنفاذ إلى روحها وفلسفتها ومقاصدها، في ضوء قوله تعالى: (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) (النحل: 90).

ـ ويتمثل الملمح الثالث في النظام الأخلاقي الذي يستهدف ـ في ترابط مع نظام العبادات ـ تحلية نفوس المتعلمين بجميل الخصال من صدق وصبر وأمانة ونجدة وكرم وإيثار وعفة وقناعة، وما إلى ذلك من قيم يدرب عليها النشء، وتكون كفيلة إن استحكمت في كيانه وأخذت بجماع نفسه، بأن تشكل أرضية خصبة للعطاء والتنمية والبناء. فالأخلاق، وكما سبق أن أشرت أساس التنمية وسياجها في نفس الوقت.

ـ ويمثل نظام المعاملات، العنصر الرابع، في نسق المنهاج، فهو الوجه المباشر أو التجلي الخارجي الذي يتبلور فيه الفعل التنموي عبر العلاقات والتفاعلات، وهو الذي يعكس مصداق سلامة البناء التربوي بجميع أسسه المتصلة بالعقيدة والعبادة والأخلاق. فـ"الدين المعاملة" كما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم.

ـ أما العنصر الخامس فأقترح أن يكون عبارة عن نصوص قرآنية وحديثية تختار بعناية وتدرس وفق منهجية هادفة إلى تدريب الناشئة على تدبر كتاب الله العزيز وحسن تذوق ألفاظه والقدرة على تفهم خطابه والنفاذ إلى مقاصده وكذلك الأمر بالنسبة لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

[58] – وهذا بطبيعة الحال رهين بفسح المجال أمامها لفعل ذلك، دون تضييق ومصادرة.

إن فتح جسور التواصل المباشر بين المتعلمين وبين القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، هو فتح لآفاق واعدة لتنمية العقل المسلم، وبناء شاكلته الثقافية المتميزة، وأي تفويت لهذه الفرصة على الناشئة، إما بإغفالها كلية، أو بسوء استثمارها منهجيا ومقاصديا، يشكل تفويتا لخير كثير على مستوى تنمية أجيال قادرة على إثبات استقلاليتها وريادتها وسط معترك المذاهب والأفكار.

ـ وفي الأخير أقترح كعنصر سادس تدريس المسيرة في شكل كتاب مهذب للسيرة النبوية يدرس كاملا على مدى السنة الدراسية، ويتم ذلك وفق منهجية محكمة تراعي استخلاص العبر والدروس، وربطها بمتطلبات الأمة وتسخيرها في سياق إعادة إنتاج أجيال متميزة بالرسالية القائمة على التأسي والاقتداء. ويمكن أن يدرج تدريس هذا الكتاب في نطاق مادة تدريس المؤلفات على غرار ما هو مقرر في مادة اللغة العربية. مما أصبح مدخلا لتمرير كتب مخربة للفكر ناسفة للقيم.

خاتمة:

وختاما أقول: إن مادة التربية الإسلامية، حتى في أسوء أوضاعها ـ كما هي الآن ـ بسبب اعتبارها وحدها المسؤولة عن تقديم الوعي الإسلامي للناشئة، ضدا على ما هو مصرح به في صدر المواثيق والأغراض الموجهة للتعليم، قادرة على المجالدة والبناء شريطة أن تنتزع حدا محترما من الشروط، أبرزها منهاج تربوي متوازن وأستاذ رسالي وغلاف زمني مناسب ومعامل في مستوى قداسة المادة وما هو منوط بها من أهداف تربوية سامية.

التربية الإسلامية والبعد الاستراتيجي لقضايا التنمية

الدكتور خالد الصمدي
(رئيس شعبة الدراسات الإسلامية
بالمدرسة العليا للأساتذة بتطوان)

انسجاما مع الرؤية المستقبلية للتربية والتعليم وربطها بالتنمية وتفنيد زعم كل من ادعى أن التربية الإسلامية عبء زائد وميدان يأخذ من الطاقات ما يمكن أن يستغل في ميادين أقرب إلى سوق الشغل. أضع هذه الورقة أمام كل ذي حس وطني، يشكل طاقة فاعلة في ميدان البرمجة والتأليف، أو له مشاركة في تقويم البرامج وإعادة هيكلتها، كما أضعها أمام الرأي العام، تصحيحا لمجموعة من المفاهيم الموروثة عن الاستلاب الثقافي الذي عانيناه ونعانيه.

وسأذيل هذه الورقة باقتراحات عملية نلحظ جميعا من خلالها أن بطالة الخريجين من الدراسات الإسلامية ما كانت لتكون لو حسنت النيات.

وفي هذا الصدد وتأكيدا لربط التنمية بأبعاد التربية الإسلامية سأركز على النقط الآتية.

ا ـ تحديد مصطلحي لمفهومي" التربية الإسلامية "و" التنمية "لأن الاختلاف في مفهوم المصطلح يقود إلى الاختلاف الحتمي في النتائج.

ب ـ تحديد الإطار العام لفلسفة التربية والتنمية من وجهة نظر إسلامية مرتبطة بالجانب العقائدي محاولا تأصيل ذلك من القرآن الكريم.

ج ـ ميادين التنمية المعاصرة ودور التربية الإسلامية فيها من بيئة وتكنولوجيا وتسيير المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ثم البحث العلمي والإعلامي وغيرها مذيلا عرضي بنتائج قيمية تشكل مقترحات عملية.

مفهوم التربية الإسلامية وبعدها الفلسفي

يقول الكاتب الإسلامي محمد قطب: لقد أحسست بطبيعة الحال أن في القرآن توجيهات تربوية كثيرة وأن لهذه التوجيهات أثرا في النفس، وأن الإنسان حين يتدبرها ويتأثر بها يصبح له سلوك معين وشعور معين أقرب إلى الصلاح والتقوى، ويصبح الإنسان أكثر شفافية وأكثر إنسانية (1) لقد خلق الله في البشر مجموعة من الأحاسيس وهذه الأساليب والطاقات محكومة بهوى النفس لأنه خلق الإنسان لهدف (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) (2) فكان لابد أن توجه هذه الطاقات إلى الانسجام التام مع الغرض من الخلق، وفي هذا الصدد ترتبط التربية الإسلامية مع نمط متكامل من التوجيهات التي ترسم الطريق للإنسان وتتلخص في:

1ـ الإيمان أو ما يمكننا أن نسميه تربويا، الارتباط بالرقابة الذاتية النابعة من الجانب العقائدي الذي يربط الأرض بالسماء، وعمل الإنسان بفلسفة الجزاء "الثواب والعقاب"، الشيء الذي تعجز عنه القوانين الوضعية لارتباطها بالرقابة الخارجية وتوفر أدلة الإثبات.

2 ـ الربط بين التربية ومبدإ الاستخلاف (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض) (3) (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) (4) وهذا الربط يشكل جوهر المنظور الحضاري في التصور الإسلامي.

ـ التوازن والتكامل بين الجوانب العقلية والمادية والنفسية والروحية (وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا، وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين) (5).

وبهذا تكون التربية الإسلامية هي "توجيه طاقات الإنسان الإبداعية إلى تحقيق العبودية لله تعالى والتخلص من عبودية المكونات المادية التي تعتبر في فلسفة التربية الإسلامية وسيلة لا هدفا"، وفي هذا الصدد يقول الشيخ محمد الغزالي: "ليس الدين أحكاما جافة وأوامر ميتة، إنه قلب يتحرك بالشوق والرغبة يحمل صاحبه على المسارعة إلى طاعة الله وهو يقول: (وعجلت إليك ربي لترضى) (6),

ويقول الدكتور يوسف القرضاوي: "ولما ختم الله كتبه بالقرآن وختم رسالته بالإسلام وختم النبيئين بمحمد (ص)، وأعلن في كتابه الخالد أن الغاية من خلق المكلفين أن يعرفوا الله ربهم وأن يعبدوه، فهذا سر خلق الجنس الناطق المفكر المريد في هذا العالم" (7)

مفهوم التنمية في بعدها الحضاري:

من الخطإ أن نعتبر التنمية مجرد عملية اقتصادية، فنحصرها في مناصب الشغل مع إغفال مؤشرات التقدم والتخلف المرتبطين بالقيم التي تحكم المسار الثقافي والاجتماعي والسياسي.

وفي هذا الصدد يقول الأستاذ عادل حسين (مفكر واقتصادي ورئيس تحرير جريدة الشعب لسان حزب العمل الاشتراكي في مصر (في مقال له تحت عنوان: "التراث ومستقبل التنمية" "غني عن البيان أن حديثنا عن التطورات المقبلة خلال عقدين كاملين، هو حديث عن تنمية مركبة تشمل المجتمع كله وتصيب مكوناته كلها (سياسية وثقافية واجتماعية إلى جانب المكون الاقتصادي) بشكل ينبغي أن يكون متكاملا ومنسقا .. ويلاحظ في السنوات الأخيرة أن المتحدثين عن التنمية العربية أصبحوا جميعا يتناولونها باعتبارها عملية أوسع من أن تكون مجرد عملية اقتصادية، ولذا يتابعون باعتناء وتحفظ مؤشرات التقدم في مختلف القطاعات وليس في القطاع الاقتصادي وحده"(8).

ومن هنا نقول :إن مهمة التربية الإسلامية لا تنفك عن المنظور الشامل للتنمية بحيث لا تنحصر في إعادة إنتاج أساتذة المادة بقدر ما توجه وتربي كل الطاقات الفاعلة في ساحة التنمية سواء في ذلك المهندسون والإعلاميون وتقنيو الفلاحة وملاحو الفضاء والبحر وغيرهم فهي مكون لا ينفصل عن أي مجال، ولعل الذين يرون أن مادة التربية الإسلامية لا ترتبط باستراتيجية التنمية يعانون من فهم المدلول الشامل لها، فيرون أن فائضا من الأساتذة المتخصصين يقتضي وقف آلة الإنتاج التي يتحكم فيها السوق بناء على قانون لعرض والطلب.

دور العقيدة في توجيه حركة التنمية

"لقد تركزت الأخلاق الاقتصادية في الغرب على أسس عقلانية نفعية صرفة، فكان الإخلاص في العمل والوفاء بالعهد وعدم الغش وغيرها من مبادئ حسن التصرف، والإدارة تأخذ بعين الاعتبار عدم فقدان الزبون، وفي كتاب ثروة الأمم يعلن منظر الليبرالية آدم سميث: "إننا لا نعتبر قوتنا منة من القصاب أو الخباز بل إن عملهما يعود بفائدة عليهما، إننا لا نخاطب إنسانيتهما بل أنانيتهما فلا نكلمهما عن حاجياتنا بل عن مصالحهما"(9).

يدل هذا التحليل على الارتباط الصرف بالمصالح الآنية، وتختلف الوسيلة باختلاف نسبة ما يتحقق من هذه المصالح المادية الظرفية، ولعل هذا ما يفسر طغيان المصالح المركزية للغرب حيث ترتبط التصرفات بفلسفة تربوية تعتمد المذهب الفردي ويتجلى ذلك بوضوح حينما يرتبط الأمر بحقوق الإنسان والحوار الحضاري والرؤية الجيوسياسية للعالم المقبل، فلا تكاد تحضر القيم الحضارية لكافة الشعوب في أي مشروع تغييري، ولا تتحدد المضامين المصطلحية للثوابت الحضارية: "حقوق الإنسان ـ العدالة الاجتماعية ـ السلم ـ الحوار ... " إلا وفق ما تنسجه مصلحة الغرب ولو على حساب المفهوم الحضاري للإنسانية .وهذا لا ينفك عن الفلسفة التربوية التي ذكرنا.

ولهذا يهبط المشروع الحضاري الغربي من محاور بالفكر إلى ملوح بالعصا كلما هددت مصالحه.

وإذا رجعنا بذاكرتنا إلى ما سبق وأن قررناه من أن فلسفة التربية الإسلامية قائمة على الارتباط بالجانب العقائدي الذي يخلق الرقابة الذاتية وبمبدأ الاستخلاف الذي يأخذ بعين الاعتبار فلسفة الجزاء (ثواب ـ عقاب) كموجه أساسي، وبمبدإ التوازن انسجاما مع مكونات الإنسان، تبين لنا أن أخلاقيات التنمية في المشروع الإسلامي مرتبطة بما هو أبعد من تحقيق المصلحة الذاتية الفردية، إذ تعتبر العقيدة ورقابة الله تعالى ومبدأ التقوى بوصلات موجهة لأي فعل اقتصادي أو اجتماعي أو سياسي فيقاس النفع والضرر بمدى الاستجابة لأمر الله وحقوق المكلفين (كما يقول علم الأصول) والتعارض بينهما قائم على درء المفاسد وجلب المصالح العامة، هو الموجه المتحكم.

وبهذا تكون العقيدة عنصرا متحركا وليست إيمانا جامدا لا يتجاوز حدود القناعات الخاصة الداخلية غير المؤثرة في السلوك العملي، لذلك قال الرسول) (ص) : "الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل" .(10)

وبقراءة بسيطة لبعض نماذج الدعوة في القرآن الكريم نرى كيف وظفت العقيدة كفلسفة تربوية متكاملة في إصلاح ما فسد من أحوال اقتصادية واجتماعية وسياسية ومؤصلة لتنمية بديلة، ومن أمثلة ذلك:

نبي الله شعيب وإصلاح الفساد الاقتصادي

قال تعالى: (وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) حيث ركز على العقيدة في النفوس أولا لأنها صمام الأمان وأساس الإصلاح والبناء ثم بعد ذلك قال : (ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط، ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين بقية الله خير لكم إن كنتم مومنين وما أنا عليكم بحفيظ)(11).

لكن اختلال الموازين عند بعض القوم، أو ما يمكن أن نصطلح عليه في واقعنا الحالي" التفكير العلماني "أو " الفصل بين الدين والدولة "استحكم في العقول فلم يستسيغوا هذا الربط بين مفاهيم العقيدة والفعل الاقتصادي (قالوا يا شعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد) (12).

ولكن شعيبا وجه اهتمامهم إلى الجانب العقائدي لضمان استمرار الفكرة من أن يكون أتباع كثر، فالعبرة بالكيف لا بالكم في المنظور التربوي الإسلامي، والعبرة بترسيخ المفاهيم لا بكثرة الرهط (قال يا قوم أرهطي أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربي بما تعملون محيط) (13).

نبي الله لوط وإصلاح الفساد الاجتماعي

قال تعالى: (كذبت قوم لوط المرسلين إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون إني لكم رسول أمين فاتقوا الله وأطيعون، وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين أتأتون الذكران من العالمين وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون)(14) والملاحظ أن إصلاح الفساد الاجتماعي كسلوك عملي لم يكن ليتم دون إرساء فلسفة تربوية تنطلق من الجانب العقائدي (ألا تتقون) (فاتقوا الله وأطيعون) (إن أجري إلا على رب العالمين) قال ابن كثير: "فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحده، لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات والفواحش المنكرات والأفاعيل والمستقبحات فتمادوا في ضلالهم وطغيانهم واستمروا في فجورهم وكفرانهم فأحل الله بهم من البأس الذي لا يرد ما لم يكن في خلدهم وحسبانهم وجعلهم مثلة في العالمين" (15). والملاحظ في عالم اليوم أن القيم التربوية اللبرالية لا تستسيغ وضع قيود على حرية التصرف إلى حد أدى إلى تهتك العلاقات الاجتماعية ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تحد حملات التوعية بأخطار الأمراض المتنقلة جنسيا ومؤسسات حماية الأسرة والطفل والمظاهرات ضد العنف والاغتصاب من حدة هذا الدمار مادامت الفلسفة التربوية قائمة بالأساس على "دعه يعمل دعه يمر"، وقد أضحت مظاهر الخلل الاجتماعي القائمة عائقا حقيقيا أمام التنمية على المدى البعيد، فيكفي أن تستنطق الميزانيات المخصصة لمؤسسات إعادة التأهيل ومحاربة المخدرات والعيادات النفسية لنقف أمام ملايين الدولارات التي تحتاج إليها المؤسسات التنموية التي تهدف إلى البناء.

موسى عليه السلام وإصلاح الفساد السياسي

لا ينفك الإصلاح السياسي والتنمية في هذا المجال عن التصور العقائدي في المنظور الإسلامي ومما يجسد هذه الرؤية على مستوى القصص القرآني قوله تعالى واصفا الفساد السياسي القائم "إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين" (16) ولإصلاح هذا الوضع كان لابد من ترسيخ المفهوم العقائدي أولا قال تعالى مخبرا عن فرعون (قال فمن ربكما يا موسى، قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) (17) (وفي آية أخرى قال< :قال فرعون وما رب العالمين قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين .قال لمن حوله ألا تستمعون، قال ربكم ورب آبائكم الأولين .قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون، قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون" (18).

والمعلوم أن تصحيح المفهوم العقائدي لبني إسرائيل كان كافيا ليخوض بهم البحر وليجادل بهم سحرة فرعون وليخلصوا للفكرة أيما إخلاص إلى أن قالوا لفرعون: (لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا، إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه

من السحر والله خير وأبقى" (19) وذلك بعد أن قال لهم فرعون مهددا: "فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى" (20).

وهكذا أصبح الوضع السياسي القائم مرفوضا بعد وضوح البناء العقائدي السليم فكانت التربية الإسلامية التي تركز مفاهيم الألوهية والربوبية لله تعالى تعلم العالم والناس أن الحكم المطلق هو لله تعالى وأن من ولاه الله شأن الناس وفقا لمبادئ الشورى والبيعة لا يعدو أن يكون مكلفا بحماية القانون الإلهي وتطبيقه وهذا كله كفيل بأن يجتث جذور الدكتاتورية والاستغلال من المجتمع الإنساني.

عبر النماذج التي سردناها يظهر بجلاء أن التنمية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية مرتبطة ارتباطا وثيقا بفلسفة التربية السائدة وحتى ننقل القارئ من هذا المستوى التنظيري إلى المستوى التطبيقي نقوم بجولة عبر ميادين التنمية المعاصرة لرصد واقعها أولا ثم معرفة انعكاسات التربية الإسلامية على مستوياتها العملية .لنعرف أن ـ التربية الإسلامية ـ في قطاع التكوين الذي يشكل الرافد الأساسي لمؤسسات التنمية ـ مادة تذوب في كل التخصصات لتطبعها ببصمات الاستمرار الناجح والتخطيط المسؤول، وليست مادة منعزلة أو متعلقة بتخصص دون آخر.

التربية الإسلامية وتسيير المؤسسات

يحتاج تسيير المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية قبل القوانين الضابطة، إلى تكوين متين ومستمر يستوعب التغيرات، ويحتاج أيضا إلى من يتصف بأخلاق المهنة والإخلاص لها .ثم هو يحتاج ثالثا إلى تخطيط مستقبلي ورؤية بعيدة.

وتأتي القوانين المنظمة خاصة الزاجرة منها لسد الثغرات وتفويت فرص الاستهتار على المتهاونين والمصلحيين، ويحتاج القانون المتعارف عليه إلى جيش من الأطر يسهر على حمايته ثم إلى مجموعة أخرى تسهر على حماية ومراقبة حماة القانون، لأن المتعارف عليه في زماننا من خلال الواقع المعيش أن أهل القانون أقدر الناس على اختراقه باعتبار الاطلاع الكبير على الحلقات المفرغة ونقط الضعف وصيغ التأويل.

وما أوتيت كثير من المؤسسات إلا من قبل سوء التدبير وخرق القوانين المنظمة نظرا لغياب الضمير المهني من جهة ثم ضعف الرقابة البشرية من جهة ثانية.

وأمام هذا الوضع لا شك أن تسيير المؤسسات في حاجة إلى رجال يتوفرون إلى جانب ما ذكرنا من تكوين مستمر ومتين على رقابة داخلية مكتسبة من منظومة تربوية إسلامية تربطهم بأهداف أسمى من "الضمير الحي" و"الواجب الإنساني" إلى تحقيق مبدإ خلافة الله في أرضه والإحساس بالمسؤولية أمام أصحاب الحقوق وأمام الله الذي يعتبر رقيبا وحسيبا وشاهدا، لقول الرسول (ص) : "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته" (21) (ولن يتم هذا إلا إذا كان التكوين المهني والمعرفي لا تنفصل فيه الجوانب التقنية عن التوجيهات الروحية العقائدية، وقد نستغني بهذا عن أطر الرقابة التي تحتاج إلى رقابة، وقد نستغني عن بروتوكولات القسم التي تتلو أي تعيين في أي منصب من المناصب الحساسة في الدولة، ولذلك لا نستغرب من كون الرسول (ص) معضدا بالوحي قضى ثلاث عشرة سنة في صقل الجانب العقائدي لدى الرجال الذين سيساهمون في بناء أول دولة إسلامية بالمدينة.

ومن هنا يظهر أن هدف التربية الإسلامية يتجلى في أمرين، طرح البديل الإسلامي في الواقع سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، ثم ترسيخ الرقابة الذاتية التي تجعل الشخص المسؤول يرقى بالمسؤولية من التشريف إلى التكليف لأنه يعي جيدا قول الرسول (ص): "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته" (22) ومن هنا ندرك سر قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه :"لو عثرت بغلة بالعراق لسئل عمر لماذا لم يعبد لها الطريق" (23 ، وقال حين حضرته الوفاة :"ما ندمت على شيء ندمي على تولي الخلافة" (24) وندرك أيضا سبب عزوف أبي حنيفة عن تولي منصب القضاء، غير أنه كان من سننهم أيضا إذا رأوا أنهم أهل لتولي منصب قد يفسده من ليس أهلا له، قالوا مثل ما قال يوسف عليه السلام للعزيز " اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم" والحفظ يعني الشعور برقابة الله تعالى والعلم يعني الكفاءة وهما شرطان أساسيان لتسيير المؤسسات، وهذا ما توفره التربية الإسلامية.

التربية الإسلامية والتكنولوجيا

يشعر الإنسان في العالم المعاصر أنه أسير التكنولوجيا وأن التقنية الحديثة سلبته حريته فأصيب بهذيان وارتجاف خوفا من أن تكون عاملا مدمرا للحياة أو على الأقل عامل استعباد للضعفاء، وتهديد لمصادر رزقهم وتحكم في خياراتهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وهو ما حصل بالفعل في عالم النظام الجديد، وقبله أيام الحرب الباردة، وفي هذا الصدد يقول الدكتور محمد عزيز الحبابي رحمه الله :"التكنولوجيا بحد ذاتها هي مصدر للروائع بالنسبة للإنسانية، لكن هذه الأخيرة ليست أبدا سوى وسائل مادية فاترة ذات بعد متساو من الخير والشر على الصعيد الإنساني، إن للتكنولوجيا دورا وهو الدراسة العقلانية للتقنيات، يجب أيضا إقامة انشطار واضح بين الاستعمال الحسن أو الاستعمال السيء للتقنيات غير أن ما يميز التكنولوجيا ظاهريا في مرحلتنا الراهنة، هو بداية قسوة تطبيقاتها :أفران حرق الجثث ـ هيروشيما ـ التمشيط المنتظم للثائرين (الثوار ضد فرنسا)، رش البلدان بالنابالم في الصبائح الهادئة، الشواهد لا تنقص أبدا، إن المنطق ينكسر في هذه اللعبة، ويتموضع "الأنا في البداية أو في النهاية ويصبح الكلام عبر منطق مكسور" (25) ..وهاك بعض الوقائع التي تسبب الخوف والارتجاف، إنها مراجع مرقمة، مدورة وحادة جارحة بشكل مفارق:

900 مليار دولار تقريبا للتسلح، مقابل 35 مليار لمساعدة العالم الثالث، وجزء عيني من هذه المساعدات معطى على شكل سلاح أو يقدم لشراء أسلحة ..كيف يمكن لمسلم أن يكون رد فعله على هذا الرجل العالمي (26) وبعد عرض مستفيض لمختلف المواقف المتخذة من التكنولوجيا خلص الدكتور الفاضل إلى فكرة تصب في نفس اهتمامات العالم المعاصر وهو ما يصطلح عليه بأخلاقيات التكنولوجيا وما نسميه نحن توجيه التربية الإسلامية للتكنولوجيا بما يخدم قيم الإنسانية ويحقق خلافة الله في الأرض وعمارتها مخالفين بذلك منطق السيطرة الذي يؤدي في غالب الأحيان إلى الاستعمال السيء للتكنولوجيا، يقول الدكتور محمد عزيز لحبابي: وبالفعل فالإسلام والتكنولوجيا ... سوف يجدان وجه فائدة لكل منهما، فالآلية المنتقدة من أجل تفلتها الجنوني، سوف تأخذ وجها إنسانيا، والإسلام سوف يجد وتبثه الجسور التي انتزعها منه التفاوت التاريخي، وسوف يعود الإيمان قوة احتجاج متيقظة ..وهكذا فإن زواج العقل والإخلاص بين العلم والتكنولوجيا من ناحية والإسلام من ناحية أخرى، يُعيد للمجتمع بعده الروحي وسوف نسترجع عندها الصفاء والسكينة الخامدتين منذ أمد طويل (27).

التربية الإسلامية والإعلام

يستطيع الإعلام أن يخلق صورة سيئة عن إنسان ما، أو شعب ما، كما أن له قدرة على خلق صورة إيجابية، وإن لم تكن حقيقية عن إنسان آخر أو شعب آخر، وعن طريق سلطة الإعلام ودورها في تكييف الإطار الفكري للإنسان، نخلص إلى أن الوسائل الإعلامية تلاحق الفرد في العصر الحديث أينما كان، وبغض النظر عن مكونات العقلية المرجعية فإننا نجده مستعدا للتجاوب مع الخبر والصورة بشكل كبير، ويبقى الصدق والكذب وقواعد الإعلام مثل" الخبر مقدس والتعليق حر "تخضع للنسبية المرتبطة بأخطبوط إعلامي موجه لخدمة أهداف معينة ليست بالضرورة في صالح المستمع بل توجيهه والتأثير عليه، وقد أضحى الارتباط متينا بين المؤسسات السياسية والإعلامية، ولم تعد الاستقلالية واردة على الإطلاق، فلن يمكن بأي حال أن تخرج توجهات محطات الإرسال التلفزيوني في الولايات المتحدة مثلا عما تخططه المؤسسة الحاكمة في إطار النظام العالمي الجديد، وكم كان الإعلام الغربي مقدمة ممهدة لضربات عسكرية موجعة في عدة مناطق من العالم عن طريق استعداء العقلية الغربية باستعمال مصطلحات" الإرهاب" "التطرف" "الشرعية الدولية" "التدخل لحماية حقوق الإنسان" "إعادة الأمل" فيشعر الشارع الأوروبي إما بالتعاطف مع العمليات العسكرية أو بالخوف على المصالح ولقد أصبح المسلمون اليوم بعد فترات الانحطاط يعتمدون على وسائل الإعلام الأجنبية، في مادتهم الإخبارية التي ترتبط في كثير من الأحيان بمركزية الغرب، وفي كثير من الأحيان الأخرى بالمؤسسات الصهيونية التي تعمل عبر شركات دعاية إعلامية ترصد لها الأموال الطائلة لصناعة أبطال مزيفين وتهميش كل من يدور في فلك هذه المؤسسات أو يعمل ضدها: إننا نجد في الإسلام ضمانات الخبر الصادق واستقلال المؤسسة الإعلامية نظرا لتحملها المسؤولية في تحري الدقة، انطلاقا من قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين)(28) وقوله تعالى: (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد)(29) وقوله (ص): "من كان يومن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت".

وقد لفت نظري مقال للأستاذ محمد إدريس، من إسلام أباد صدر في مجلة العالم اللندنية (30) يتحدث فيه عن قوانين الصحافة كما وضعها القرآن الكريم من خلال قصة النبي سليمان مع الهدهد في سورة النحل، ومن الموازين الصحفية التي ذكرها:

ـ احتواء الخبر على الجديد بالنسبة للسامع، وهذا واضح في قوله تعالى على لسان الهدهد): أحطت بما لم تحط به) (31).

ـ كون الخبر مؤكدا في قوله) وجئتك من سبإ بنبإ يقين) (32) فليست الصحافة الإسلامية صحافة تزييف وتزوير.

ـ تحديد الزمان والمكان ووصف الحالة وهذا ما ورد في ثنايا القصة.

ـ الصحافة الميدانية أرقى صور الإعلام المعاصر وهذا متوفر لأن الهدهد صحافي لم يعتمد تغطية الحدث من مكتبه وإنما زاره ميدانيا (وجئتك من سبإ بنبإ يقين).

ـ تجرد الخبر عن أي مؤثرات وعدم استجابته لأية ضغوطات، فالهدهد نقل الخبر وانتقد الأخطاء دون أن يخشى ملكة سبإ.

إن ميدان الإعلام يحتاج إلى تربية وتكوين يضمنان تواجد أخلاق المهنة ويتحرر الإعلام ليصبح أداة ترشيد وتثقيف عوض أداة ضغط وتزييف، وذلك عن طريق تطعيم برامج التدريب بالتصور الإسلامي سواء في المناهج أو المواد الدراسية لأن الواقع الحالي يتحدث عن غياب أي حس إعلامي إسلامي عند معدي البرامج عموما، أو عن خبرة ضعيفة عند معدي البرامج الدينية خصوصا .فلا هذا ولا ذاك نريد، إنما نريد إعلاما متطورا منضبطا بالتوجهات التربوية الإسلامية وأساسيات الإعلام الحر النزيه.

التربية الإسلامية والبيئة

حينما نتحدث عن البيئة فإننا نقصد كل ما يحيط بالإنسان مما سخر الله له في الكون من مخلوقات قال تعالى): والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين (وقد تحدثت كثير من الدراسات عن البيئة وعوامل تلويثها فتحدثت عن تلوث الماء وعن تلوث الهواء والتربة والغذاء والتلوث الضوضائي وتلوث الطبقات الجوية واستنزاف الثروات الطبيعية، وأشارت بأصابع الاتهام إلى الإنسان عبر أنشطته الصناعية التي خلفت نفايات خطيرة وأنشطته العسكرية التي خلفت دمارا وخرابا للبيئة يبقى مفعوله عبر الحقب والأزمان ومخزون العالم من أسلحة الدمار الشامل يكفي لتدمير الكرة الأرضية.

إن من أساسيات التنمية، الحفاظ على البيئة ومقاومة التلوث ولن يتم هذا بواسطة قوانين محلية أو دولية يصادق عليها في مؤتمرات من حجم قمة ريوديجانير و(قمة الأرض) وإنما يتم ذلك بواسطة التربية لأن الفرد هو الذي يفسد البيئة ويلوثها قال تعالى: (ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون).

إن غياب هذا الحس التربوي الإنساني هو الذي يجعل الغرب يصدر نفاياته إلى بلدان العالم الثالث بما في ذلك النفايات النووية المشعة مقابل عقد صفقة مع نظام حاكم في بلد جائع وفقير ومريض. إن غياب هذا الحس هو الذي يجعل الصناعات الغربية تصب الأطنان من النفايات في عرض البحار، إن الفرق كبير بين الفكر والممارسة وكبير بين" التخلص من النفايات "و"المحافظة على البيئة"، إن الإسلام حينما تحدث عن الطهارة الحسية والمعنوية فإنما ربط ذلك بالتصور العقائدي والعبادي، ربط الطهارة بالشعائر التعبدية حيث لا تجوز بدونها ولا تخلو تعليمات الإسلام في كل الميادين من إجراءات لحماية البيئة.

فحينما تحدث عن الماء وهو المكون الرئيسي للبيئة ربطه بالحياة، قال تعالى: (وجعلنا من الماء كل شيء حي) لذلك نهى الرسول (ص) عن تلويثه في الحديث الذي رواه أبو هريرة حيث قال: "لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ولا يغتسل فيه"، وبالقياس يكون النهي بهذا الحديث عن كل ما يلوث الماء.

وحينما يتحدث عن الحروب ومخلفاتها ينهى عن حرق المزروعات وتدمير مقومات الحضارة لأن الحرب في الإسلام استثناء من قاعدة السلام، يقول أبو بكر الصديق رضي الله عنه في وصيته لأسامة بن زيد قائد الجيش الإسلامي إلى الشام: "ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا بقرة ولا بعيرا إلا للأكل..." وعن التصرفات العامة للإنسان في تعامله مع بيئته اعتبر الرسول (ص) (أن إماطة الأذى عن الطريق صدقة، فعن أبي برزة قال قلت يا نبي الله علمني شيئا أنتفع به قال: اعزل الأذى عن طريق المسلمين).

هذه توجيهات إسلامية أوردناها كنموذج لدعوة الإسلام إلى المحافظة على البيئة يحتاج تأصيلها إلى دراسة واسعة.

يقول الأستاذ عبد الله هلال من هيئة الطاقة الذرية في القاهرة، والواقع أن التقدم الصناعي الذي أحرزه الإنسان هو أكبر مسبب للتلوث، ذلك لأنه لم يقترن بالقيم الصالحة التي تحرم الإضرار بالبيئة واستنزاف ثرواتها ...وإذا كنا نجتهد في هذه الأيام لدفع التنمية في بلادنا ومواكبة التقدم الصناعي الذي أحرزه الغرب فيجب أن تحكمنا قيمنا الإسلامية .ويضيف: "صدرت التشريعات وتكونت المنظمات وعقدت المؤتمرات العديدة لبحث الإجراءات اللازمة للتصالح مع البيئة، ومع أن إهمال الجوانب الروحية والدينية هو أهم أسباب التدهور البيئي فمن المؤسف أن المواثيق والتوصيات التي صدرت عن مؤتمرات حماية البيئة، لم تتطرق إلى هذه العوامل المهمة، إن الرقابة الوحيدة التي يمكن أن تلازم الإنسان في كل زمان ومكان هي رقابة الضمير، والقانون الوحيد الذي نضمن له الاحترام والتطبيق هو القانون الإلهي".

التربية الإسلامية وأهداف البحث العلمي

إن الأخذ بالمنهج الإسلامي في مجالات البحث العلمي يجب أن يقبل على أنه حقيقة منطقية وضرورة حضارية، ويكفي شاهدا على ذلك أن علوم الكون والحياة إسلامية بطبيعتها لأن موضوع البحث فيها هي كل خلق الله في كتابه المنظور.

من هنا كانت إسلامية المنهج العلمي أو أسلمته ضرورة حضارية ملحة لضمان مواصلة التقدم العلمي والتقني مع الحفاظ على إنسانية الإنسان، ذلك لأن الإيمان الخالص، والسمو الروحي يأتيان في مقدمة الخصائص التي يتميز بها المنهج العلمي الإسلامي وإليهما تعزى كل القوى الدافعة لملكات البحث العلمي عن طريق الإبداع والابتكار...

لذلك بنيت فلسفة البحث العلمي من المنظور الإسلامي على نظرية التوحيد التي شكلت دافعا من حيث المنطلق وهدفا من حيث النتائج، فهي دافع من حيث أن الرسول (ص) (يقول : "إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له". فهذا دافع يتضمن مصلحة الإنسان وتطوير البحث العلمي، والسيطرة على الطبيعة، ليتجاوزها إلى ما هو أسمى وهو الأجر والثواب المتواصل بتواصل نفع النتائج المتوصل إليها.

وهي هدف من حيث إن (من الصفات الجديدة للمعرفة العلمية المعاصرة، أن الحواجز الظاهرية بين فروع العلم المختلفة أخذت تذوب تدريجيا لكي تحل العلوم المتداخلة والمتكاملة محل العلوم المتعددة والمنفصلة، ولقد توقع "هيز نبرج" هذه النتيجة للعلوم المعاصرة عندما ذكر في محاضرة ألقاها بجامعة ليبزك عام 1941م أن فروع العلم المختلفة قد بدأت في الانصهار في وحدة كبيرة وحول فكرة العلم الموحد).

وهذا هو هدف البحث العلمي من المنظور الإسلامي، إذ كل العلوم ووسائل البحث فيها تهدف إلى إثبات وحدانية الله وعظمته، لذلك نجد كثيرا من الآيات تحث على النظر في المخلوقات لإدراك عظمة الخالق وهو الهدف الأسمى من البحث العلمي.

وهكذا تدفع التوجيهات الإسلامية الباحث العلمي إلى تصحيح النية في البحث وتوجيهه إلى ما هو أسمى من المصلحة الظرفية، وفي هذا التصحيح دفع قوي وتجاوز للصعاب وترشيد في طبيعة توظيف النتائج لخدمة الإنسان وتحقيق الخلافة في الأرض.

الخاتمة

بعد هذه الجولة مع مختلف جوانب التنمية وبيان تأثرها بالتوجيه التربوي الإسلامي نستنتج ما يلي:

1- إن ربط التربية الإسلامية بالتنمية لا يعني إيجاد مناصب الشغل لتوظيف طاقة الخريجين بقد ما يرتبط ذلك بالهيكلة الحضارية العامة فكل فرد مساهم في هذه الهيكلة عليه أن يأخذ من الكفايات ما يضمن معه التوجيه السليم نحو خدمة الحضارة البشرية.

2- إن خريجي الدراسات الإسلامية من المتخصصين أبعد الناس من أن تطالهم البطالة باعتبار الحاجة الماسة في مؤسسات التربية والتكوين إلى هذا التخصص لتحقيق استراتيجية تنموية منضبطة مع السياسة العامة المرسومة للتعليم والتكوين، وفي هذا الإطار تندرج دعوة أستاذنا الجليل محمد بلبشير الحسني إلى تدريس مادة اللغة العربية والثقافة الإسلامية في كل مؤسسات التربية والتعليم والتكوين

بمختلف شعبها، وفي هذا الصدد نسجل بارتياح المرسوم الوزاري الذي يقرر هذه المادة في مختلف شعب المدارس العليا للأساتذة.

3ـ إن وضعية التربية الإسلامية في المرحلة الثانوية تفتقد إلى عناصر التوجيه والتأثير بسبب انفصال التربية عن التعليم حيث أصبح المكلف بتدريس المادة مربيا ومدرسو باقي المواد معلمين، والمطلوب في اعتقادي ليس الرفع من عدد ساعات المادة في شكلها الحالي، وإنما تطعيم مقررات باقي المواد بما يخدم أهداف التربية الإسلامية ، في إطار نظرية الوحدة والفروع مع إقرار نظام الوحدات بخصوص العلوم التشريعية) فقه ـ حديث ـ تفسير ـ عقائد (مركزين من حيث المحتوى على ما يستجيب بطبيعة المرحلة التي يمر منها المتربي المتعلم.

ونحن سنرى أن في التخطيط الحالي لمادة التربية الإسلامية من الثغرات ما لا يكفي في سده إصدار الكتب المدرسية وتعيين الأساتذة المتخصصين وإن كان ذلك لا يخلو من فائدة لأن الإشكال يكمن في المحتوى المقرر وفي قلة الحصص المخصصة للمادة.

4 ـ إن التربية الإسلامية فلسفة عامة توجه الفعل الحضاري الإنساني إلى التوفيق بين متطلبات الحياة المادية والغاية العلوية التي تتمثل في خلافة الله في الأرض بعدما أدخلت الفلسفات المادية، الإنسان في تجارب مرة وسراديب مظلمة فقد معها التوازن .تلك جملة أفكار أضعها بين يد كل المخططين والمبرمجين للتعليم سواء داخل الوطن أو خارجه لمعرفة أوجه الربط بين التربية الإسلامية الحقة واستراتيجية التنمية فيقرروا من المواضيع ما يرتبط حقا بهذا المفهوم مثل قضايا الحرب والظلم والاستعمار والاضطهاد العنصري ومشاكل الجوع والحرمان وأخطار التلوث البيئي والنفسي والعقائدي، وسوء استخدام التكنولوجيا وتناقص الموارد الغذائية والموارد الطبيعية والتحلل الأخلاقي والانفصال عن الفطرة وقضايا أخرى لا يمكن للمجتمع أن يعيش دون أن يهتم بها ويصل إلى وسائل أخرى ثم لينظروا بعد ذلك كيف تؤثر التربية الإسلامية في قضايا التنمية عمليا.

الهوامش

(1) منهاج التربية الإسلامية لمحمد قطب ج2 ص 7 .
(2)الذاريات 56.
(3)النور .35
(4)البقرة .30
(5)القصص .77
(6)الجانب العاطفي من الاسلام لمحمد الغزالي ص .6
(7)العبادة ي الإسلام ص 8.
(8)مجلة الحوار السنة الأولى ص21 وما بعدها.
(9) نفسه ص: 22.
(10)انظر موقع العمل من الإيمان فيما ذكره القاضي عياض ونقله ابن حجر في الفتح ج1
(11)هود. 86.
(12)هود. 87.
(13)هود. 92.
(14)الشعراء .166.
(15) قصص الأنبياء لابن كثير ص 192.
(16) القصص .3.
(17)طه 49-50
(18)الشعراء 23-28
(19)طه 72-73.
(20)طه .71.
(21) (22) رواه البخاري.
(23)الخلفاء الراشدون عبد الوهاب ص 112 وما بعدها.
(24) نفسه.

(25) (26) (27)نظرة إسلامية على التكنولوجيا ـ محمد عزيز الحبابي مجلة الحوار العدد 10 السنة الثالثة.
(28)الحجرات .6.
(29) ق .18.
(30)مجلة العالم عدد 21ص 60 سنة 1986.
(31)النمل وما بعدها.
(32)النمل 20.

المادة الإسلامية وآليات النهوض الحضاري
عبر الجامعة (التجارة والتسيير نموذجا)

الأستاذ: عبد السلام أقلمون
(أستاذ بالمدرسة الوطنية للتجارة والتسيير بأكادير)

تقديم :

يقود النظر الحصيف في الأسس الكبرى التي قامت عليها الأبنية المعرفية والفكرية المعاصرة،إلى ردها مجتمعة إلى أصول إسلامية .وذلك بواسطة التعاليم الكبرى التي فتحت للبشرية طريقها نحو التقدم والتطور الحضاريين،إما من طريق مباشر عندما استوحاها العقل المسلم من الوحي الرباني والهدي النبوي،أو من طريق غير مباشر عندما استوحاها العقل الغربي في إبان نهضته من الموروث الإسلامي واكتشفها في منجزاته الميدانية، ميسورة الأخذ، دانية القطف،قابلة للاستعارة؛ لما كان المجتمع الإسلامي في ازدهاره الكبير ينفي عن نفسه كل أنانية أو انغلاق، أو استضعاف للآخر بالجهل والتجهيل، بل جعل من تعليم الآخر سبيلا إلى البر واستجابة لأمر إلهي في حسن الشهود على الناس.

إن الجامعة هي المحل الأمثل لتمثيل التعاليم الإسلامية الداعية إلى القراءة باسم الله، والعمل على جعل هذه القراءة غوصا في أسرار الوجود، وفهما لسنن الأنفس والآفاق، السنن الوجودية الكونية والسنن الاجتماعية.وهذا يؤهل المجتمع المسلم لأن يكون هو الأعلى شأنا في مختلف مناحي الحياة، والنموذج الذي ينبغي أن تحرص الأمم على الاقتداء به.

ولما كانت التجارة وطرق التسيير المعاصرة مدخلا حاسما لتدبير الشأن العام والنهوض بالاقتصاد، فإن دور المادة الإسلامية ضروري لإحياء روح التعلم الحقيقي قصد احتواء أهم المنجزات العلمية التي تفتق عنها العقل البشري المعاصر،في مجال التجارة والتسيير وعلوم الاقتصاد بوجه عام، ثم صياغتها بعد ذلك بروح إسلامية تعززها بشروط الأمانة، أو ما يسميه الاصطلاح السياسي المعاصر تخليقا للاقتصاد.

وسوف نحاول في الورقة التالية أن نبين تأصيل المنظور المعرفي من خلال الآليات التي اعتمدها القرآن الكريم، والتي يعتبر تفويتها إلى القطاعات العلمية المختلفة رهانا أساسيا لكسب السبق الحضاري، بعد تقليص الفارق وتدارك المسافة مع العالم النامي.

1- إقرأ مفتاح المعرفة:

من الآيات البليغة التي ينبغي للعقل المسلم أن يقف طويلا عند دلالاتها ،قصد الدراسة والتحليل واستدرار ما تنطوي عليه من هدي عظيم وتبصرة بليغة ،هذه الآية الكريمة:(إقرأ باسم ربك) العلق 1

وتكمن أهمية هذه الآية في ثلاث مسائل أساسية :

أ- أوليتها التنزيلية

ب- صيغتها التوجيهية الوجوبية

ج- دلالتها المعرفية

أ- بالنسبة للمعطى الأول يضعنا أمام أول لقاء بين الوحي النهائي [59] وعالم الإنسانية. ورغم أن العبودية مطلب عظيم في كل الرسالات وأس العقائد جميعها ،فإن الاستهلال الرسالي الخاتم احتمل بعدا معرفيا كبيرا في صيغة أمر " إقرأ" .حقيقة أقرها الوحي وأقر في ضمير البشرية أن الله تعالى يفتح لها عهدا جديدا إلى المعرفة والعلم ،وهما مفتاح الدنيا وكنز المدنية الحديثة في مختلف وجوهها ،وقد أثبتت الأيام صدق ذلك وانخذل المسلمون الأواخر عن فهم ذلك الدرس .

[59] نعرف أن الإسلام هو خاتم الديانات ،وقد كان الوحي دائم التوجيه للبشرية مراعيا لأطوار نموها واستعداداتها الإدراكية (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل)...وكان الإسلام دينا مناسبا لآخر أطوار النضج البشري .

ب- إن صيغة الوجوب المكرر تفيد التأكيد على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يكون سيد البشرية إلا بالقراءة .لهذا لم يقبل منه الملك الكريم اعتذاره صلى الله عليه وسلم، فما زال يضمه ويرسله حتى تبين أهمية المقصود وخطورة المطلب.ثم تكفل الله تعالى بتعليمه وجعله أمينا على رسالة الإسلام بالعلم وحسن الخلق، كما كان لأربعين سنة خلت من عمره الكريم أمينا على أموال عشيرته وأسبابهم الدنيوية.

وليس لأحد أن يعتذر بأميته عن تلقي الوحي ،فقد صار رسول الله معلما للبشرية وهاديا لها ،وقارئا من كتاب الله ما تستنير به العقول، وقارئا باسم الله ما يحمي العقل والفكر والمعرفة جميعا من الزيغ والهوى والضلال .

ج - لو جاء فعل الأمر مجردا " إقرأ " لكان المطلب مطلقا، بحيث يكون المعنى كل قراءة وما اتفق منها ولكن القراءة حدد كيفها وأطلق كمها، فليقرأ الانسان ما شاء واستطاع ..ولكن ذلك لا يكون قراءة على شرط الوحي ،ومطابقا لتعليم الإسلام في أول العبارات الهادية حتى يكون باسم الله:

فليست القراءة إسلامية ما لم تكن باسم الله.

(اقرأ باسم ربك الذي خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) (العلق 1-5).

إن تكرار الملفوظات الدالة على المعرفة ووسائلها في حيز نصي قصير جعل الدلالة تتكاثف بقوة لتتركز في المعنى المطلوب استيعابه من الآية الكريمة ،وهو ضرورة العلم والتعلم والتعليم [60].

فالعلم يبارك الإنسان ويجعله سيدا أمينا على الكون وشؤونه، بما ينسجم مع وظيفة الاستخلاف.

إن المادة الإسلامية يمكن أن تشكل سندا كبيرا لمختلف أبواب المعرفة،بل هي حقل لاستثمار العقل المسلم وحفزه على تحقيق الريادة في مختلف ميادين الحياة المتنوعة وهو يطلب بذلك أن ينسجم مع أدواره الواجبة، ومهامه المنوطة به.

2- وظيفة الهيمنة أو آلية الاحتواء والتجاوز:

من الآليات العظيمة التي ينبغي للعقل المسلم أن يستنبطها من القرآن الكريم، حتى يستفيد بها نفس السمو والعلو هي "الهيمنة" بالمعنى القرآني.

إذا اتضح لنا السبيل الذي ينبغي أن تنهجه القراءة المستهدية العالمة، لزم أن نعرف في مستوى ثان آليات معرفية دل عليها القرآن الكريم، وينبغي على العقل المسلم أن يستعيرها بعد أن يستوعب طرق اشتغالها وتوظيفها، حتى يتمكن من بناء شأنه العلمي والمعرفي على منهاجها.

لقد ثبت لنا أن الإسلام هو خاتم الديانات، أي هو خلاصة الوحي الإلهي ومستودع كل حكمة سابقة، ونبراس جامع لكل ما تضمنته الديانات السابقة من نور ،فهو منتهى الحكمة وسيد الكتب السابقة .

-يقول تعالى :

(صحفا مطهرة فيها كتب قيمة) (البينة 2-3).

- ويقول أيضا (مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه)

أ- آلية الاحتواء: إن الآية الأولى تخبرنا أن القرآن الكريم قد استوعب الكتب السماوية السابقة، واحتوى ما تنطوي عليه من هدي وتبليغ ؛وهي تفيدنا أن القرآن الكريم في نهاية المطاف موئل كل تشريع سابق وحكمة صادقة، بعد التنزيه من تشويش الكتبة وتحريف المحرفين.

---

[60] صدر كتاب عن سلسلة عالم المعرفة يحمل هذا العنوان :" ضرورة العلم دراسات في العلم والعلماء " ل ماكس بيروتز ترجمة وائل أتاسي و بسام معصراني ع245 1999 .ويه تأكيد لأهمية العلم في تغيير الحياة الإنسانية ونقلها إلى مستويات عظيمة في الرقي والتقدم مقدما بعض النماذج من الطب والذرة والميكانيك الكمومي ...وغيرها ،قلت وكان العالم سيستفيد أكثر لو أن ذلك سار على هدي الإسلام الخالد ،لهذا أرى أننا في حاجة إلى كتاب آخر بعد أن تنهض الأمة الإسلامية من غفوتها وتتصدر للعلم والحضارة وتكون في موقع بحيث يسمع لها ثم يكون عنوانه "ضرورة العلم والقراءة باسم الله". إذذاك تكون الفيزياء والكيمياء والبيولوجيا والهندسة والطب والأدب والتجارة والتسيير والاقتصاد ...في خدمة الإنسان وحسن إعمار الكون ،عوض هذا الهدم الرهيب بوسائل متطورة/مدمرة للإنسان والبيئة ،والمنظمات الحية تصرخ وتستغيث ...والناس سكارى وماهم بسكارى ولكنها فتنة العلم والقراءة باسم غير الله.

ب- آلية التجاوز: إن القرآن الكريم وإن تضمن الكتب السماوية السابقة على صيغة التصديق المنزل والمنزه،فليس كله محض هذه .بل هو مهيمن عليها ومتجاوز لها ،لأن كل ما في تلك الكتب من معرفة وحكمة موجود في القرآن الكريم ،بينما يوجد في القرآن الكريم من المعارف والعلوم والحكم ما يتجاوز عقول الأوائل وخبراتهم المعرفية والاجتماعية وقدراتهم الإدراكية .ومقتضى البيان –كما نصت عليه تعاليم القرآن- أن يخاطب كل عقل بما يطيق،وكل أمة بما تفهم . لذلك كان القرآن مناسبا للعقل المسلم –وهو أعلى مراتب النضج في سلم الإدراك البشري- حتى يزوده بكل عناصر الاستخلاف على الأزمنة الحديثة والأهلية لتوجيهها والتحكم في مساراتها .[61]

وها هنا فائدة عظيمة ينبغي استحضارها :

إن عمليتي الاحتواء والتجاوز، آلية إسلامية مفيدة للعقل المعاصر ،ينبغي الوقوف عندها قصد استيعاب ما تفتحه من آفاق معرفية، ثم توظيفها بعد ذلك لاستدرار ذلك النفع وبلوغ تلك الغاية، وذلك على منوال الاحتواء والهيمنة القرآنية.

ومعنى هذا أن العقل المسلم ينبغي أن يحتوي بدون إحساس بأي عقدة أو تأثيم كل ما أنجبه العقل البشري من حسنات ومعارف [62].ثم يكون ذلك مضافا إلى ما ينتجه هو الآخر ويسعى فيه، فالاحتواء والتجاوز آليتان لا تنفعان إلا مع القوة والظهور، وليس مع الضعف والضمور.

فهذا هو المنطق الذي يرد به على الحداثوية المتهافتة وهي تزعم أن العقل العربي المسلم ينبغي أن يسير في ركاب العقل الغربي ،وعندهم أن الأخير هو النبراس، وكل من حاد على نهجه رجعي ومتخلف ...ولا ينتمي إلى المدنية الحديثة. ثم إذا ذهبت تنظر ماذا أفاد هؤلاء من أولئك لم تجد ثمة غير المنطق الذي تحدثنا عنه في صيغة مقلوبة، أي ما من سيئة من سيئات الغرب إلا ويعتنقها هؤلاء ويزعمون أنها المظهر الخارجي لإبراز التقدم والتطور والحداثة، وما من حسنة في الغرب إلا وهم يسكتون عنها أو ربما لأنهم لا يعرفون ضوابط التنخيل، لا يفهمون أنها حسنات.[63]

أما الدعوة إلى انتحال عادات الغرب فتلك كبيرة سبق للأستاذ الكبير مصطفى صادق الرافعي أن قام بتحليلها وكشف ما تنطوي عليه من أخطار، إن لم تكن في الأصل نوايا مبيتة لهؤلاء الأدعياء:

"...وقد غفلنا عن أننا ندعو الأوروبيين إلى أنفسنا وإلى التسلط على بلادنا بانتحالنا عاداتهم الاجتماعية؛ لأنها نوع من المشاكلة بيننا وبينهم ،ووجه من التقريب بين جنسين يعين على اندماج أضعفهما في أقواهما ويضيق دائرة الخلاف بينهما، ثم هو من أين اعتبرته وجدته في فائدته للأوربيين أشبه بتليين اللقمة الصلبة تحت الأسنان القاطعة؛ وهل نسي الشرقيون أن لا حجة للغرب في استعبادهم إلا أنه يريد تمدينهم ؟ "[64]

3- الشهود الحضاري:

(وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا)

إن هذه الآية تضع المسلمين أمام أدوارهم التاريخية، ومسؤولياتهم العالمية. ولو فهمت هذه الآية حق فهمها، ولو اجتهدت الجامعات على التنقيب في أسرار ومعاني هذه الآيات لكان ذلك بمثابة وقود لانطلاق الجهود والمثابرة لتحقيق ذلك الرهان الخالد المظنون بأمة الإسلام، وهو أن تقود البشرية وتكون الحكم العالمي العادل لمختلف شعوب الأرض، لأنها بأمر الشرع الذي تخضع له لا تملك إلا مكيالا واحدا لتزن

---

[61] لكن الغريب أن الأمة الإسلامية في عصرنا هذا لم تفهم هذه الغاية ولا تعمل من أجلها ؟

[62] ما دام العقل هبة من الله ،ولا أحد يزعم أنه خالق عقله ،فمعنى ذلك أن كل خير أنتجه عقل فالفضل فيه لخالقه ومبدعه أولا،ثم لصاحبه بعد ذلك فقط .ولما كان المسلمون هم المستخلفون على الأرض بحكم الشريعة فإنهم وارثوا الحسنات كيفما كان منبعها وأينما كان مصدرها .

[63] أنظر مثلا إلى السكر والدعارة والجرائم والتبطل والنودي الليلية وكثرة السهرات واستهتار النساء كيف انتشرت وأصبحت مظهرا يفاخر به هؤلاء ويزعمون أنه تمدن وحداثة ...ثم ابحث عن الديموقراطية الحقة ،ونظافة المدن وأصالة البناء المادي ،والتساوي أمام القانون ،ومحاسبة الحكام حتى أنهم لاحق لهم في كثير مما ينعم به الناس العاديون ،ومكافحة البطالة ،وبناء المصانع وإعداد القوة ...فهل تجد شيئا من ذلك في الحياة المكشوفة التي سيطر عليها أدعياء الحداثة والعلمانية عندنا ؟؟

[64] وحي القلم ج 3 دار الكتاب العربي بيروت بدون سنة الطبع ص 175.

القضايا وليس لها أن تعبث به أو تحدث معايير مزدوجة كما تفعل ذلك اليوم الأمم المحكمة في رقاب العالم.

لقد أبرز الوحي الكريم أن السموات والأراضين قامت على ميزان محكم ودقيق: (والسماء رفعها ووضع الميزان) يثبت العلم المعاصر أن الملكوت العظيم فيما وقف عليه النظر العلمي يخضع لتدبير محكم وقوانين صارمة ،ولعل أبسط إخلال بأحد الموازين من شأنه أن ينسف نظام الكون ،فلو تقدمت الشمس قليلا أو تأخرت قليلا عن موقعها ولو أنها حادت عن فلكها شيئا قليلا لانتهت الحياة ،وكذلك بالنسبة للقمر ...وبقية الكواكب والأجرام.

(ألا تطغوا في الميزان وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان)

طلب من الناس تدبير شؤون الحياة بموازين صارمة ومنضبطة تسمح بتسيير الحياة الإنسانية على نحو قريب مما في السموات من نظام ،ولما كان الله تعالى تكفل بنظام القوانين الطبيعية سن لها تلك الموازين الذاتية البديعة التي قضت بها الآية الكريمة :

(لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون)

وأما القوانين الاجتماعية فقد أسند أمرها إلى الإنسان وجعل مستخلفا فيها ومسؤولا عنها، أي سيسأل عن مهمته تلك كيف أنجزها وماذا بذل في سبيل أن تستقيم سبل الحياة الاجتماعية، لينسجم التسيير والتدبير البشري مع مقتضيات الميزان المنصوص عليه في القرآن الكريم: العدالة والضبط والإتقان والمحافظة أو الاقتصاد وأضدادها، الظلم والاختلال والتهاون والتضييع أو التبذير.

إن استعمال الميزان الإسلامي لقياس القضايا والظواهر والحكم عليها، يجعل الحياة الاجتماعية تنساب بأمان وقوة يشبهان سير القوانين الطبيعية في الملكوت المحيط، مما يجعل القانونين الاجتماعي والطبيعي يتظافران لتحقيق الغاية الكبرى وهي حسن استضافة الإنسان في هذا العالم؛ وذلك بما تمنحه القوانين الطبيعية من استنارة مادية وتسخين وتبريد وإنضاج وتوازن وجاذبية ...وما لا يحصى، وبما تكفله القوانين الاجتماعية من إعزاز وتكريم في العيش والتعليم والسكن والتطبيب والجوار ...وغيرها.

وهذه الحقوق مكفولة للناس جميعا أينما كانوا وحيثما وجدوا، ولا يستقيم ميزان الاجتماع الإنساني حتى يستقيم هذا الشرط. وقد بين الله ذلك لنبيه وبين نبيه ذلك لأمته وتبين الأمة ذلك للناس جميعا. وهذا مقصود الأمة الوسط أي الأمة العليا في كل شيء: في العبادة والعلم والعمل والخلق والجمال ...وبذلك يكون وسط كل شيء أعلاه، فوسط الجبل والهرم قمتهما.

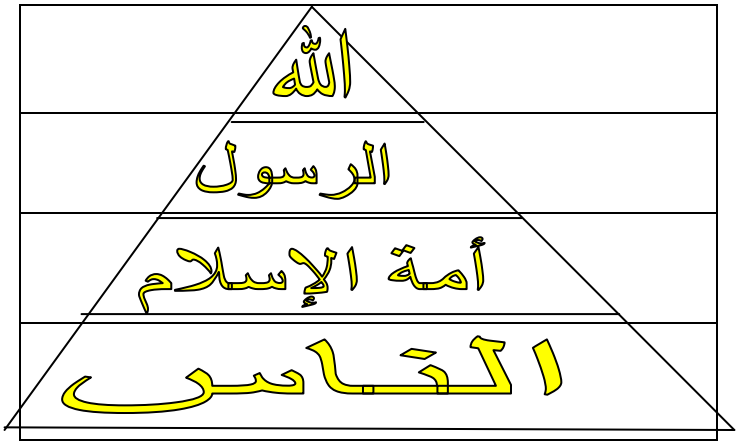

إن هرمية المعرفة من منظور إسلامي تنبني على الشكل الذي يبرزه المثلث أعلاه، فالله سيد الكون وبارئه وخالق كل شيء هو الأعلم والأحكم، وبعده رسوله الأمين المسدد بالوحي، وبعده الأمة الإسلامية بعلمائها المستهدين بكتاب الله وسنة رسوله، وبعدها أمة العالمين وهي تستظل برحمة الإسلام ومعارفه. ومهما بدا من حيازة "الناس" من معارف وعلوم فإنها غير مؤهلة لأداء دور الشهادة على الناس كما هو واضح للعيان في عالمنا المعاصر، حيث الظلم المبرر بالقوة والغلبة هو السيد وليس الحكمة التي يقرها العقل وينشدها المنطق.

وعلى الأمة الإسلامية أن تستعيد وظيفتها الطبيعية في إثبات التفوق الحضاري، ولعل السبل أمامها مفتوحة اليوم، فليس مطلوب منها أن تنهض بالجهد من أوله أو أن تعاف ما أبدعه العقل الغربي من حسنات، بل إنها مدعوة لحسن الاستيعاب والاحتواء والتجاوز ما دام ذلك سنة بديعة في إحراز التفوق كما بيناه، ولا يتناقض مع مطلب الشهادة على الناس؛ فلا يستحق أن يضطلع بتلك المهمة وينجز ذلك الدور إلا الأمة التي تجمع حسنات الأمم كلها ثم تزيد عليها هي بأخرى ليست عند أحد سواها وهو مقتضى "ومهيمنا عليه".

4-التجارة والمال أو السلطة الحديثة:

نشطت علوم الاقتصاد في العصر الحديث بقوة ملحوظة، وصارت تجذب اهتمام الباحثين والسياسيين والمسؤولين بقوة، بعد أن ثبت أن الأمة المتفوقة في مجال المال والأعمال هي الأكثر اقتدارا على تدبير الشأن السياسي ومن ثم التحكم في المصائر وتسييرها.

والمؤسف أن الدول العربية الإسلامية هي التي أصبحت تستحق صفة الدول المتخلفة أو المنتمية إلى العالم الثالث. ومعنى ذلك أن المعطيات المندرجة في عرضنا هذا سابقا لا تجد تحققها الواقعي، بمعنى أن أمة الإسلام ليست هي الأعلى في الواقع، بل هي في الدرك الثالث من الترتيب العالمي بعد الأمم المتقدمة والتي تليها؟

إن هذه الوضعية تحتم على المجتمعات العربية والإسلامية أن تهتم بالعلم والتعليم، خصوصا بمقتضيات التعليم الإسلامي كما شرحناه حتى تتمكن من تغطية مختلف القطاعات التنموية معرفيا وتتمكن من التحكم في مواردها، وأن تستطيع تسييرها لأنه بدون موارد وبدون تقنية عالية لا يستطيع أي اقتصاد كيفما كان نوعه أن يطمح إلى التقدم والتطور.

ورغم أننا نملك الموارد الكثيرة بل والمدهشة في عالمنا العربي على الأقل إلا أنها لا تغني عنا شيئا ولا تحسن وضعيتنا العالمية، وليست في مستوى أن ترفعنا إلى مستوى الشهود الحضاري المنشود، على الأقل في المدى المنظور.

إن الجامعة العربية وكل مجالات البحث في حاجة ماسة إلى توحيد الرؤيا المستقبلية وبناء تصور محكم قادر على انتشال الأمة من وهدة الركود والضعف. ولا يمكن للبرامج التنموية وحدها أن تنجز تلك المهمة، بل تحتاج البرامج نفسها إلى منظور حضاري حاسم يمنحها مبرر الانطلاق والتحدي. ولعل حشد مؤهلات الأمة معرفيا وتحفيزها لاستعادة دورها الحقيقي في ريادة العالم - عوض التبعية والإلحاق الحضاريين- هو الذي من شأنه أن يخلق برامج تنموية لتحقيق تلك الغاية تمزج بين الإقتصادي والسياسي والثقافي والاقتصادي والاجتماعي.

إن الغرب يملك منظوره الحضاري ورؤيته الواضحة إلى العالم، وهو يعمل منذ تمكن من النهوض والقضاء على الخلافة الإسلامية على استدامة تفوقه، وبناء مؤسسات دولية تمكنه من الإشراف وتسيير العالم .وقد وجد في السيطرة الاقتصادية والتفوق التجاري والمالي أدوات فعالة لتحقيق ذلك.

إن الفكر الاقتصادي الغربي رغم تعاقب المدارس وتوالي الاجتهادات يظل محكوما بالرؤيا الميركانتيلية التي سادت أوربا منذ القرن السادس عشر وتستهدف بالإضافة إلى دعم الاكتفاء الذاتي الوطني، تعزيز المدخرات القومية من المواد الثمينة كالذهب والفضة. ويرى الميركانتيليون أن بلدا معينا لا يمكن أن تتفق له أسباب القوة إلا إذا استطاع أن يكنز الثروة الهائلة من هذه المواد الثمينة، وهو لا يستطيع ذلك إلا عندما يسوق منتوجاته للبلدان الأخرى، مما يخلق وضعية تجارية يرجح فيها ميزانه التجاري بالفائض، بينما تضطر هذه البلدان إلى محاولة ردم العجز في ميزانها بالتخلي عما في حوزتها من ذهب وفضة ومواد ثمينة يمكن أن نجعل على رأسها اليوم البترول.

ورغم تطور المناهج والنظريات الاقتصادية منذ القرن السادس عشر إلى الآن،إلا أن الروح الميركانتيلية ما تزال متحكمة في خيارات الهيمنة الاقتصادية العالمية لدى الدول المهيمنة.مما يؤهلها تبعا لأهليتها الاقتصادية والمالية من توفير المؤسسات العسكرية والبنيات التحتية التي تمكنها من استدامة التفوق، ورعاية تخلف الدول الأخرى حتى تظل في مستوى الإلحاق الحضاري المستديم، مستعينة بأوصياء سياسيين يكفونها التدخل المباشر وأدعياء ثقافيين يمكنونها من التوغل في وجدان الأمم المخالفة وإعدادها ثقافيا لتقبل الاحتواء الخارجي.

إن الأمة الإسلامية هي المؤهلة اليوم بعد أن تحرر نفسها بالاضطلاع بمهمة تحرير مختلف الشعوب المقهورة، من الجهل والفقر والأوبئة... التي يسببها تخلف تصنعه أنظمة جبرية وترعاه دول استكبارية. وتكون إذ ذاك موئلا لحسن الشهادة على الناس.

5-المال والأعمال بين القوة والأمانة:

إذا كان التعليم أساس كل تنمية، فإن المادة الإسلامية هي أساس تنمية التعليم نفسه.

إن الجامعة المغربية يمكنها أن تنجز وظيفة تنموية عظيمة في مجال التجارة والتسيير إذا اعتمدت إجراءات عملية لترقية التكوين وتنمية القدرات وترشيد الإنتاج المعرفي وذلك من خلال العنصرين البارزين الآتيين، وهما يلخصان مختلف الخطوات التي فصلناها أعلاه، القوة العلمية والأمانة الخلقية.

تعتبر القوة مطلبا قرآنيا عاما، ويمكن إسقاطه على مختلف قطاعات الحياة: السياسية والاقتصادية والاجتماعية ...وغيرها.

نتعلم من الوحي القرآني أن القوة من بين الميزات الأساسية والشروط الضرورية للنهوض بالمسؤوليات الجسيمة؛ لذلك وصف القرآن الكريم الملك جبريل عليه السلام بأنه " قوي" و "أمين":

(ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين)

هذه الصفات أهلت الملك الكريم لتحمل مسؤولية نقل رسالة الوحي إلى نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم.وهي نفسها الشروط التي أهلت مختلف الأنبياء ونبينا لتحمل مسؤولية التبليغ عن رب العالمين.

ويتضح من ذلك أن منهج القرآن الكريم يقتضي أن لا يتولى المهمات الجسيمة والمسؤوليات الخطيرة إلا كل قوي أمين.

هذا المطلب نفسه ينبغي استيحاؤه والعمل به في مجال التجارة والاقتصاد، فقد أثبتت الوقائع في عالمنا العربي أن من بين أسباب التخلف الكبيرة هي رد المسؤوليات إلى الضعفاء والخونة.

والمقصود بالقوة في هذا السياق هو القوة العلمية في فهم مختلف النظريات الاقتصادية الحديثة، ومناهج الاستثمار والتسويق الفعالة لترقية المنتوج والإنتاج على حد سواء وضمان تسويقه. وكذلك الحرص على حسن التسيير والتدبير في مختلف المنظمات سواء كانت مؤسسات الدولة أو القطاعات الخاصة والمقاولات الحرة وغيرها، وحيثما كان مال يستثمر أو ميزانيات تصرف. فلا بد لهذه الميزانيات والأموال من الأقوياء القادرين على المبادرة والاستعانة بالخبرات والتقنيات الحديثة وكل ما يتيحه العلم من مؤهلات تقنية وفنية واستراتيجية، ثم الأمناء القادرين على احترام الوطن والمواطنين والسهر على ما تحت أيديهم من أمانات هم وحدهم من يستطيع أن يأمر بصرفها.ونحن نعرف أن طرق التحايل على القانون وعلى الوثائق والتنسيق بين المسؤولين على الصرف: المسؤول، المدير، المقتصد...كثيرة جدا و لا يمكن للقانون وحده – رغم أهميته ورغم كونه مؤشرا على اعتماد آلية القوة التدبيرية – أن يحد من الاختلالات والاختلاسات التي تتسبب في تأخير المشاريع وإضعافها،فالأمة التي لا تبالي بأموال المواطنين تشتغل دائما في حدود الربع من مؤهلاتها الحقيقية بينما الثلاث أرباع الباقية تشق طريقها إلى جيوب المسؤولين الذين يضيعون الأمانة، كيفما كانت مراتبهم ودرجاتهم.

إن دور الجامعة المغربية أن تقوم بإنتاج القوة العلمية والأمانة الخلقية، ممثلة في طلبة قادرين على أن يتحلوا بالرغبة الدائمة في المثابرة والتحصيل والوصول إلى قمة ما تعرضه سوق المعرفة من إنتاج علمي، وأن يتمكنوا من احتواء ذلك باستيعابه وفهمه وحسن استهلاكه ثم العمل على تجاوزه والهيمنة عليه بإضافة عناصر أخرى تزيده قوة .

إن عملية الاحتواء والتجاوز هي التي ستحول الجامعة المغربية والعربية بشكل عام إلى مراكز لتحصيل المؤهلات وتعميق الخبرات، والخروج إلى الميدان بطاقات جبارة قادرة على نقل مجتمعنا خطوات إلى الأمام، واستدراك الفارق العلمي والمعرفي - خصوصا في مجال التجارة والتسيير والاقتصاد - بيننا وبين العالم المتقدم .هذا الأخير الذي يحسن آليتي الاحتواء والتجاوز ويستفيد من نتائجها، التي ما فتئ يجرب أهميتها. ونضرب لذلك مثلا، عمله على جلب الأدمغة والطاقات البشرية أينما كانت، ثم صياغتها في مشاريعه الخاصة، مما يجعل طاقاتها تصب في منفعته ومصلحته القومية، لكنه لا يكتفي بالاحتواء بل يتجاوز ذلك بالهيمنة ومنح تلك الإنجازات طابعا غربيا، أي ربط الإنجازات بمحضنها الأساسي :فلا أحد يستطيع أن يسلب صفة الأوربية والغربية بعامة عن مختلف الإنجازات التي تشهدها

الحياة العلمية هناك، وذلك بالرغم من مشاركة عقول غير أوربية في إنجاز تلك المشاريع، حتى ولو كانت نسبة نجاح المشروع إلى تلك العقول فوق الجدل.

ولكنها السنة الاجتماعية التي نبه إليها القرآن الكريم، وهي أشبه بالسنن الكونية فكل من أحسن استثمارها سيجني ثمارها لأنها مسخرة لذلك:فنتائج الجد والمثابرة والتخطيط والمحاسبة ...غير نتائج الكسل و الخمول والعشوائية وإطلاق الأيادي في الأموال العامة لكل من تولى مهمة صرف ميزانية أو أمر بصرفها.

ولعل خلاصة القول تتمثل في الكلمة البليغة للمفكر الكبير مصطفى صادق الرافعي:

"إن التعليم في الجامعة بغير دين يعصم الشخصية هو تعليم الرذيلة تعليمها العالي".

فهرس الكتاب: التربية الإسلامية أساس التنمية الشاملة

- تقديم.....3
- التربية الإسلامية والتنمية. ذ. محمد بولوز.....6
- الهوية الحضارية والتنمية ذ. محمد احساين.....14
- السياسة التعليمية أولا. ذ. محمد عزيز السجاعي.....22
- آفاق المادة الإسلامية التنموية في ظل منظومة معوقة.

ذ. عبد المجيد بن مسعود.....25

- التربية الإسلامية والبعد الاستراتيجي لقضايا التنمية.

د. خالد الصمدي.....38

- المادة الإسلامية وآليات النهوض الحضاري عبر الجامعة.

(التجارة والتسيير نموذجا)

د. عبد السلام أقلمون.....47

الفهرس:.....54